طبعة جديدة

إرنست هيمنقواي

الشيخ و البحر

متبوع بـ

ثلوج كيلمنجارو





الشيخ والبحر

متبوعة برواية

ثلوج كليمانجارو

الأنيس
السلسلة الأدبية
تحت إشراف محمد بلقايد

صدر هذا الكتاب عن وزارة الثقافة بمناسبة
الجزائر عاصمة الثقافة العربية 2007
يُهدى ويُوضع في المكتبات ولا يباع

إرنست همنغواي

الشيخ والبحر

متبوعة برواية

ثلوج كليمانجارو

تقديم رشيدة يلّس شاوش



من مؤلفات همنغواي

The sun rises too
Farewell to arms
Death in the afternoon
Green hills of Africa
For whom the bell toolls
Across the river into the trees
A moveable feast

تقـديـم

الشيخ والبحر

ولـد هيمنغواي (Hemingway) في 21 يوليـو سنـة 1899 في «واك بارك» (OAK Park) بولايـة «إلينوى» (Illinois) . وكان أبوه طبيبا وأمـه عازفة موسيقى . وسرعان ما درّبه أبوه على الصّيد براً وبحراً ، فأيقظ فيه اهتماما بـالعلوم الطبيعـة . وكان يقضي عطلته ، طوال طفولتـه الغضّـة ، على ضفـاف بحيرة «ميشغـان» (Michigan) مخيّما في الغـابـات المجـاورة التي التقى فيها بأوائل من عرفهم من الهنود .

ولما بلـغ الثـامنـة عشرة من عمره تحصـل لـه عمـه على منصب محقـق صحفي متمرّن في جريـدة «كانســاس سيتي سطــار» (Kansas city star) . وفي سنة 1918 لفتت انتباهه أوربـا المنهمكـة في الحرب العـالميـة . ولكن بصره الكليل حـال دون تجنيـده في الجيش ، فسـافر الى ايطـاليـا ليعمـل سائقا لسيارة إسعـاف تـابعـة للصّليب الأحمر الإيطـالي . بيـد أنـه لم تمض سوى أيام قليلة على نزوله بإيطـاليـا حتى أصيب بجروح بـالغـة نقل على إثرها الى وطنه . وقد ساعدته هذه التجربة الأولى التي صدمت فيها نفسه على اكتشــاف الـوجــه الآخر لـواقـع الحيــاة . وعرف أن الطهر والبراءة يعارضها العنف والفساد أبد الدّهر . وألهمه هذا الاكتشاف موضوع قصتـه الأولى «وداع للأسلحة» (L'adieu aux armes) .

وتولى مدّة سنتين مراسلـة «تورنتو سطـار» (Torento star) ثم أوفـدتـه

جريدته هذه سنة 1921 مراسلا لها الى باريس . وأتاح له مقامه بالعاصمة الفرنسية فرصة نشر مؤلفاته الأولى (حكايات وأشعار) ، ومجاورة أدباء وفنانين كبار من شتى الجنسيات ، مجتمعين حول الأديبة الأمريكية «جيرترود استين» (Gertrude Stein) . وهكـذا تعرف على «جيمس جـويس» (James Joyce) و«شروود أنـدرسـون» (Sherwood Anderson) و«ايـزرا بـاونـد» (Ezra Pound) ، ثم تعرف بعـد ذلـك على «سكـوت فتزجيرالـد» (Scott Fitzgerald) و «جـان بـول سـارتر» (J.P. Sartres) و«أنـدري مـالرو» (Andre Malraux) و«ويليـام فـولكنير» (Wiliam Folkner) و«ويليـام برد» (Wiliam Bird) (الـذي تكفـل بنشر مجموعـة قصص «من عصرنا» (De notre temps) سنة 1925) .

رحـل الى إسبـانيـا للمرة الاولى سنـة 1924 ، فـوجـد نفسـه مبهـورة ومسحورة بهذا البلد ، شعبه وثقـافتـه الغنيـة (ولا سيما ريـاضـة مصـارعـة الثيران وما يحيط بها من طقوس) . وصار يتردد بـانتظـام الى «بـامبلونـه» (Pamplune) للمشـاركـة في اعيـاد «سـان فيرمـان» الشهيرة . ولمـا عـاد في السنـة ذاتهـا الى فرنسـا ، ارتبـط بعـلاقـة صـداقـة مع «جيمس جـويس» (James Joyce) وأفضى تعـاونهما الأدبي الى اشتراكهمـا في نشر الأعمـال الأدبية الجارية (Œuvres en cours) وسرعان مـا ابتعـد خلال الفترة ذاتهـا عن وسـط النماذج الفنيـة الرائجـة آنـذاك . وقفـل راجعـا الى الـولايـات المتحـدة سنـة 1925 لينشر فيهـا قصتـه «سيول الربيـع» (Les torrents du printemps) وهي محـاكاة سـاخرة لقصص «شيروود انـدرسـون» (Sherwood Anderson)و«جيرترود أستين» (Gertrude stein) وقطـع صلتـه بنـاشريـه وصـار يتعـامـل مـع «سريبنر» (Seribner) . لقـد حـاز هيمنغواي رضـا النقـاد ولكنـه مـا يزال لم يكسب جمهوره. غير أن ظهـور

قصتـه «الشمس تطلـع ايضــا» (le soleil se leve aussi) سنــة 1926 أثــار حماس القراء . وفي سنة 1927 ، نشر قصتــه «رجـال بلا نسـاء» Hommes Sans Femmes) وتزوج للمرة الثانية .

وبعد مقامه بفرنسا واسبانيا قفل راجعا الى منابعه الاصليـة ، ولكنـه اتجه هذه المرة الى جنوب الولايات المتحدة ، والى فلوريدا بالـذات . وفي مـــدينـــة . كي ويست» (Key west) عــاوده الحنين الى هـوايتــه ، صيـد الاسماك التي كان يمارسها في طفولته . وفي تلك السنة بالذات سنـة 1928 ولد ابنه الثاني ، وانتحر والده . وشعر هيمنغواي بألم وحزن شـديـدين إثر هذه المأساة . وجاء صدور قصته «وداع للأسلحة» في السنة المواليـة ليحرز نصرا حقيقيـا . غير أن هـذه «الاستراحـة» الامريكيـة الطـويلـة اخــذت تزعجه وتبعث في نفسه القلق ، فاستهوته اسبانيا مرة اخرى واتـاحت لـه هـذه الرحلـة دراسـة اوفى وافضـل لحضـارة هـذا البلـد ولمصـارعـة الثيران بـالخصوص . واقتبس من ذلـك كلـه مـوضـوع قصتـه «مـوت في الظهيرة» (Mort dans l'aprés midi) سنة 1937 .

تحقق لهيمنغواي سنة 1932 ما كان يحلم به منذ امـد بعيـد . فقـد ابحر هو وزوجته الى«موحباسا» في كينيا للقيام بنزهة قنص في ادغالها . وكان مقامه بهذا البلد حافلا بمغـامرات سعيـدة وتعيسـة في آن واحـد ، فـألهمـه ذلـك اربعـة كتب «الظــافر لا يكسب شيئـــا» (Le gagnant ne gagne rien) ، (1936) و «روابي إفريقيــــا الخضر (Les Collines vertes d'Afrique) (1935) و«ثلـوج كليـمـانجـارو» (Les neiges de kilimandjaro) (1936) و«ســاعـة انتصـــار فرنسيس مـــاكـومب» (L'heure trionphale de F. Macombes) (1936) ثم عـــــــاد هيمنغـــــواي سنـــــــة 1937 الى موضـوعـه الرئيسي في الـولايـات المتحـدة فـانشـأ فيـه كتـابـه «ان تملك

أو لا تملك» (En avoir ou pas) الذي يعالج مشكلة الحيف الاجتماعي .

وفي تلك الاثناء اوفدته رابطة صحف أمريكا الشمالية الى اسبانيا كمراسل لها في ذلك البلد ..وفي ظروف الحرب الأهلية الاسبانية كتب تعليقه على فيلم «اسبانيا تشتعل نارا» واشترك مع «دوص باصوص» (Dos Passos) في تصوير «ارض اسبانيا» (Terre d'Espagne) فأتاح له ذلك الذهاب الى ساحة القتال والاطلاع بنفسه على حقيقة تطور النزاع . ولئن كان هيمنغواي يجدفي نفسه عطفا على قضية الجمهوريين فانه لا يحمل السلاح مع ذلك للدفاع عن هذه القضية . وفي سنة 1938 نشر مسرحيته الوحيدة «الطابور الخامس» (La cinquième colonne) وشهد استيلاء فرنكو (Franco) على السلطة . وعاد الى الولايات المتحدة فاستقر في كوبا عندما اندلعت الحرب العالمية الثانية . وفي سنة 1940 نشر كتابه «لمن تقرع اجراس الموت» (Pour qui sonne le glas) الذي أحرز نجاحا باهرا .

لم يتجه هيمنغواي الى مسرح العمليات الحربية باعتباره مراسل حرب انطلاقا من بريطانيا الا سنة 1944 . وبذلك شارك مع الحملة العسكرية الامريكية في النزول بمقاطعة «نورماندي» (Normandie) الفرنسية ، وفي تحرير باريس ولما وضعت الحرب اوزارها عاد الى الولايات المتحدة . ثم انتقلت اسرة هيمنغواي الى ايطاليا سنة 1948 فتعرف الكاتب في مدينة البندقية (Venise) على الفتاة ادريانه (Adriana) التي ستغدو بطلة قصته «وراء النهر وتحت الاشجار» (Au dela du fleuve et sous les arbres) (1950) وانهمك في اعداد قصة اخرى (نشرت بعد وفاته) هي قصة . جزر زائغة» (Ils à la derive) فاستعمل منها جزءا بعد زيادة . تبسطية وتوسيعه في قصة جديدة هي قصة «الشيخ والبحر» (Le vieil

homme et la mer) (1953) . وقد لقي هـذا العمل نجـاحـا كبيرا استعـاد به هيمنغواي ثقته في نفسه ، وميله الى الاسفار والمغـامرة متعـاقبين . ولمـا كانت اصابته خطرة ، آثر الرجوع الى كوبا للاستراحة .

وسمح له مقام لاحق في اسبـانيـا وفرنسـا عـام 1956 بجمع مـذكرات «بـاريس في عرس» (Paris et en fête) (1964) ونـال جـائـزة نـوبـل سنـة 1954 كما وزع اوقـاتـه بين كـوبـا «وايـداهـو» (Idaho) فيما بين 1956 و 1959 ، وحرر سلسلـة مقـالات عن مصـارعـة الثيران لمجلـة لايف (Life) جمعهـا تحت عنـوان «الصيف الخطر» (l'Eté dangeureux) ، وغـادر مقر إقامته في كوبا نهائيا سنة 1960 ليستقر في ايـداهو» (Idaho) . وتفـاقم امر انهياره العصبي المزمن فوضع حدا لحياته في 2 يلويو سنة 1961 .

لقـد كانت الفترة المتـدة فيما بين 1940 و 1950 من حيـاة هيمنغـواي فترة جـدب ادبي وقلـة انتـاج . ويبـدو ان حـالـة من التـدهـور اصـابت ظروفه الصحية وقدراته الابداعيـة ، وكانت مشـاركتـه الحثيثـة في الحرب الاسبـانيـة وفي تحرير بـاريس قـد زادت في تفـاقم مـا كان يعـانيـه من اضطرابات تسبب فيها اطلاقه العناء لحياة ما جنة على العموم .

وكان سفره الى ايطاليا سنة 1948 منطلقا لمرحلة جديدة هي مرحلة النضج ، وهكذا تلاش قلقه من الموت وتواتره الذي يحفل به مجموع انتاجه ليفسح المجـال لفلسفـة جـديـدة في الحيـاة . وفي هـذا السيـاق الانفعـالي والفكري اخذ يعيد كتابة احد نصوصه السابقة . وظهر هذا النص الجديد الى الوجود تحت عنوان «الشيخ والبحر» (Le vieil homme et la mer)

لقد قوبلت هذه القصة التي نشرت اصلا في مجلـة «لايف» (Life) سنـة 1951 بحماس فيـاض لـدى جمهور القراء ، فبيـع أكثر من خمســة مـلايين نسخـة منهـا خـلال ثمـان وأربعين ســاعــة . وحينئــذ قرر «سكريبنر»

(Scribner) ناشر هيمنغواي اصدار القصة في كتـاب . ومـا من شـك في ان قراءة الأولين قد أنهلهم ما في القصة من بساطة أسلوب واتجـاه رمزي . كما تأثر النقاد من جهتهم بالجودة الخارقة لأسلوب كتابي حاز قـدرا وافرا من المهارة في نهاية المطاف ، والواقع ان ما صدر عن هيمنغواي هـذه المرة انمـا هو تـأليف رائـع جـاء ثمرة لصبر فنّيّ طـويـل ، وحكمـة ورزانـة اكتسبها الكاتب بعد معاناة شاقة .

ان هذا الصراع العجيب الذي قام بين صياد عجوز ووحش أسطوري ليعبر في الواقع عن عنـاد الانسـان واستبسـالـه في مـواجهـة مصيره ، وعن مدى تعطشه فوق كل شيء الى المطلق وهيامه به .

لم يستطع «سـانتيـاغو» (Santiago) الصيـاد الكوبي العجوز ان يمسـك أي حوت منذ أسـابيع . ومـاكان لـه ، وهو الـذي همّشـه سـائر الصيـادين وسكان القرية ، الا ان يعيش وحيـدا معزولا عن المجتمع . ولم يبق لـه في الواقع سوى هواية واحـدة هي لعبـة كرة القـاعـدة «البسبول» (base ball) وصديق واحـد هو الطفل، مـانولو» (Manolo) الـذي يكنّ للشيخ العجوز اعجابا شديدا وتقديرا ومحبة صادقين .

ان سانتيـاغو لرجل صنيـديـد صـامـد يرفض الاستسلام والخنوع على الرغم من تقدمـه في السن ووضعـه الاجتماعي الهشّ . وفي فورة من فورات التحـدي للقـدر المعـاكس لـه ، قرر ذات يوم ان يخـوض غمـار البحر مرة اخرى بقاربه الصغير ، لعله يظفر بقطعة صيد كبيرة هـذه المرة يعود بهـا مزهوًا الى قريته . وهكذا فبعـد خمسة وثمـانين يومـا من الحرمـان ونكـد الحظ ، جـاء حوت كبير ليلقم طعمـه صنـارتـه ويمسـك بـه الشصّ . إنـه سيف البحر(Espadon) وهـو بحجم وقـوة خـارقين . وقرت الفرحـة الاولى والشعور بـالنخـوة والفخر لاصطيـاده هـذا الحـوت الكبير . وسرعـان مـا

ادرك ان الصراع سيكون طويلا وشاقا قبل ان ينقاد له الحوت العنيـد . وفعلا فقد تبارى مدة ثلاثـة ايـام مع خصم ثقيل جـدا لا يقوى على جره قاربه الصغير والخفيف .

أخذ الحوت في مرحلة اولى يجرُّ القارب بعيـدا عن الشـاطئ ، ولم يقو الشيخ على السيطرة عليه ، واثناء هذه المسايرة وزيغان القـارب قـام بين المتصارعين ما يشبه علاقة غريبة مشحونة بانفعـال وتعـاطف وتـأثر ، غير ان طابع هذه الرابطة تشبه السحري سرعان ماتلاشى عندما ظهرت ارتال من حيتان القرش (Requin) مجذوبة برائحة الدم . وعبثا قـاوم سـانتيـاغو بكل ما اوتي من قوة سطوة هذه الحيتان الرهيبة . وعنـدمـا دخل المينـاء منهوك القوى ، دامي الكفين ، لم تـك ضنـارتـه تجر سوى هيكل عظمي ضخم اثار مشهده اعجاب الناس جميعا .

من أجلى مميزات هيمنغواي وخصائص عمله الادبي انه يرمي الى تجريد يزداد روعـة وجمـالا كلمـا تقـدم في الشرح وامعن في التوضيح وهكـذا تمرّ السنون ويبرع الكاتب في اسلوبه الذي يزداد دقة وبساطـة . وقدلاحـظ النقـاد بهـذا الصـدد وجود انقطـاع واضح كل الوضوح يطـابق الفترة التي كتب فيهـا قصتـه «وراء النهر وتحت الاشجـار» اي حـوالي سنـة 1950 . ويرى «روجر اسلينو» (Roger Asselineau) في هذه القصة :

«ان هيمنغواي يعالج بأقل كلفة جميع محاوره الكبرى المـألوفـة . ويكاد ينأى عن كل عنف تمامـا . ولا يتنـاول اشخـاص قصصـه من الكحول الا قليلا ، وباعتدال واتّزان كما ان الحب حبٌّ روحي اكثر منه جسديـا (...) فـالكـولـونيـل كانتـويـل (Cantwell) يستمتـع بـالحيـاة استمتـاع خبير بهـا ويجدها رائقة وجديرة بـالاستمتـاع بهـا (...) وهو يرتضي الموت ويتقبلهـا بهدوء وسكينة»[1] .

أمـا «الشيـخ والبحر» فـانهـا قصـة تمثـل ، في آن واحـد ، ثمرة لتطـور سيكولوجي ونهـايـة مثيرة لنشـدان فني . وبهـذه الصفـة ، فهـو يركـز في حكمة واحدة ظاهرها ساذج وبسيط ما يتكرر في تآليفـه كلهـا من محـاور رئيسية .

- الموت والمصير
- العنف والهوى
- الوحدة والقداسة

وقد يبدو من المفارقة التحدث عن جليل مقدس بصدد تأليف طابعـه الاساسي هو نداء العـدم والـدعوة اليـه . ومع ذلـك فـان القراءة المتـأنيـة لتكشف اهمية هذا الموضوع . من المؤكد ان «سانتياغو» ، شأنـه شـأن كثير من ابطـال قصص هيمنغواي ، رجل وحيـد ، منبوذ من مجتمعـه ، بيـد ان هذا الشيخ الهرم المنكود الحظ تربطه عـاطفـة عميقـة بفتى اسمـه «مـانولو» (Manolo) وهكذا فان الصداقة بين الذكران التي نجـد لهـا امثلـة كثيرة في القصص السابقة قـد تحوّلت هنـا الى علاقـة من طراز آخر ، علاقـة أقرب الى تلك الصلة التي تصل الاستاذ بتلميذه أو الجدّ بوريثه .

ومـا من رفيق يستـأنس بـه في هـذه الـدنيـا الخـاليـة من النسـاء غير الطبيعـة ، الطبيعـة المتـوحشـة والسخيـة في آن واحـد ، الطبيعــة الام ، والطبيعة الخليلة ومن المؤكـد ان هيمنغواي ظل في قصتـه «الشيخ والبحر» وفيـا لأحـد محـاوره المفضلـة المتمثل في العنف فـالصراع لا هوادة فيـه بين الرجل والحيوان . لأنه لا منـاص في النهـايـة من ان يكون ثمـة منتصر ، ولو ان «الظافر لا يكسب شيئا» عـدا شرف النصر كما هو الشـأن في أغلب الأحيان لدى هيمنغواي .

بيد ان الذي يمكن ان نلاحظه هنا هو ان العنف المؤسّسي والتـاريخي

(الحرب) يحتل المقـام الثـاني ويفسح المجـال لعنف آخر هو العنف الرمـزي هذه المرة . فهو يرتب الافتتان والألم والمعانـاة لكي يفضي حتما الى مـا هو جليل ومقدس . على انه يجب ان نلاحظ ان مـا هو جليل ومقـدس عنـد هيمنغواي لا يلتبس بحـال من الاحوال مع مـا هو تعبـدي ديني . ولا أدل على ذلك من مثـال سـانتيـاغو الـذي أقل مـا يقـال فيـه هو ان عقيـدتـه المسيحية تبدو سطحية بدل ان تكون راسخة عميقة . وتبقى كرة القاعـدة (البسبـول) مـع صـورة «دي مـاكجيــك» (Di Maggic) الاسطــوريــة ، وأحلامه حافلة بالاسود . لكن وجود هـذه السبـاع يتعـارض ويتنـافى في هذا النمط الاستيهامي مع انحطاط صورة الحوت الممزق الاوصال . ويـأتي ليذكرنا بأهمية المظهر المشهدي للعنف لدى هيمنغواي .

وكما هو الشأن في رياضـة مصـارعـة الثيران ، حيث يغـالب المصـارع الثـور الهـائـج ، نرى «سـانتيـاغـو» يغـالب في هــذا المشهــد سيف البحر (L'espadon) في ضرب من الطقـوسيـة البـالغـة الشــدّة . وبهــذا الصــدد يلاحظ آسلينو قائلا :

«إننا لنشهد ، وكأننا بصدد مـأسـاة إغريقيـة ، فـاجعـة رجل يصـارع القـدر ، وقـد هزمتـه قوى لا قبـل لـه بهـا ، وعـاقبتـه الآلهة على صلفـه وكبريائه . غير ان هزيمته ، مثل مـا هو الشـأن في المـأسـاة الإغريقيـة ، لاتترك فينـا انطبـاعـا بـالانسحـاق والخور ، بل تثبت ، على العكس من ذلك ، مـدى عظمـة الانسـان الـذي يظل غير مقهور الروح على الرغم من هزيمته الظاهرة»[2]

إن إماتة البطل الرمزية وبـالتـالي سيف البحر ، مثلـه في ذلـك مثل إماتة كبش الفداء في الديانات القديمة المنقرضـة . كما ان موضوع المواجهـة الطقوسية بين الرجل والوحش البحري أمر عتيق للغاية كما تشهد بـذلـك

الميتولوجيات الاغريقية والامثال الانجيلية والاساطير الشرقية .

إن هذا الاستناد في المحاور الرئيسية الى الحكايات والاساطير ليجد امداده الطبيعي في أسلوب الكتاب ذاته . وان تطور الكاتب في هذا الصعيد أيضا لأمر واضح إذا علمنا أن للأسلوب لدى هيمنغواي مكانته الأساسية على الدوام . ولما كان صحافيا في بداية حياته العملية فقد تعلّم ، على نحو مفيد ، تقنيات التعبير الخاصّة بهذه المهنة . ولا يخفى علينا مدى احتفاله بالدقة والبساطة ، واحتقاره المحسنات اللفظية التي يراها تبجُّحا وتكلفا واصطناعا . ومن هنا حرصه الشديد واهتمامه الكبير بتدبيج جملته القصيرة (الفعل والفاعل والمفعول) التي تذكّرنا بكتابة «كاموس» (Camus) «الناصعة» . وقد ازداد هذا الأسلوب القاطع والفعّال مع تقدمه في السن ليبلغ في كتابه «الشيخ والبحر» درجة عالية من البساطة وحسن الأداء .

لكن مثل هذه الكتابة المهذّبة وذات الشحنة الرمزية القوية ليست بالتي تخلو من بعض الغموض والالتباس . ذلك ان النص في الواقع يبدو وكأنه يتأرجح بين عالم الحكايات الني تحكي للأطفال وعالم الأمثال الانجيلية . فهو يتحاشى هنا التفاصيل ذات الطبيعة الخالية من الرونق والجمال (انظر مثلا معالجته لسيرة «سانتياغو» اذ تكاد تأخذ موقعها في سجل النكرات التي لا يحدها مكان او زمان . فهي اذن من قبيل المثاليات («حدث ذات يوم ان رجلا عجوزا ...») .

أن تكون هذه القصة قصة مثالية فهذا امر لا شك فيه ، سواء من حيث المكانة التي تحتلها في مؤلفات هيمنغواي ام من حيث ما تركته من أصداء في الأدب العالمي . فلقد أثر هذا الكتاب الصغير بالفعل في كثير من أجيال القراء وفيمن غدوا بعد ذلك كتّابا ومؤلفين (بما في ذلك العالم

الثالث) وليسمح لنا ان نسجّل بهذا الصدد ان آخر قصص هيمنغواي الكبيرة تجري أحداثها رمزيا في أحد موانئ الكرايب الصغيرة ، بعيدا كل البعد عن «الحواجز القديمة» التي أقامها الغرب الآخذ في الانحطاط ...

هوامش

(1) روجر آسلينو (Roger Asselineau) ارنست هيمنغوي باريس ، صغيرس (Seghers) 1972 ، الصفحة 49 .

(2) روجر آسلينو . المصدر نفسه ، الصفحتان 50 ـ 51 .

ثلوج كليمانجارو

كان هيمنغواي بوصفه مغامرا كبيرا يجافي الامتثالية البرجوازية وخرقها المطبق ويأنف منها . ولكنه كان أيضا شديد الحذر والاحتراس من السراب الدخيل والغريب . وقد أتاحت له خبرته بحياة أوساط المجتمع الراقية ملاحظة سلوك هذه الثلة من المترفين الذين أبطرهم البذخ وأفسدهم الفراغ ، من فنّانين فاشلين ، ونجوم هاوية آفلة ، يقضون أوقاتهم في البحث عن السلوان هربا ممّا يشعرون به من ضجر وملل ، (وما يخامرهم من قلق وخوف) فينشدون ذلك في الرحلات والأسفار المتكررة . وهو يرى أن «سكوت فتزجيرالد» (Scott Fitzgérald) مؤلف الكتاب الذائع «غاتسبي العظيم» (Gatsby le Magnifique) فاتن هوليود والمجتمع المندفع (jet society) الذي أفرزته فترة ما بين الحربين يجسّد المثال النموذجي للكاتب الضالّ الذي أفسده الترف والمال.

ولكي يفلت هيمنغواي من مغريات هذا المجتمع الفتان والمدمّر في آن واحد ، أقدم سنة 1932 على تحقيق مشروع قديم له ، فهجر مدّة من الزمن اضطرابات العالم الغربي وصخبه ، وقصد كينيا في رحلة صيد بأدغالها . وقد وجد في هذا الفصل المتقلّب من حياته المادّة اللاّزمة لكتب أربعة منها «ثلوج كليمانجارو» (les Neiges de Kilimandjaro) .

والواقع أن قصة «ثلوج كليمانجارو» لم تشهد النور الا في سنة 1936 ،

أي بعد أربعة أعوام من سفره . وعاد هيمنغواي الى اسبانيا مرّة أخرى لكن كمراسل حرب . وفي وسعنا أن نعزو هذا الفاصل الزمني بين إقامته في كينيا وظهور قصته تلك الى أسباب أعمق وأكثر ذاتية ، فضلا عن الأسباب التقنية البحتة . وقد يكون ذلك بالفعل دليلا على مدى أهمية هذه الرحلة في مسيرة الكاتب . وربما كان ذلك من الوجهة الفلسفية دافعا لهيمنغواي الى مزيد من تشديد نقده لمعايير العالم الغربي وقيمه .

إنه ، وهو الذي تأثر بنزعة «شورو» و «امرسون» (Thoreau et Emerson) الصورية ، قد ساعده احتكاكه بالثقافة الايبرية العتيقة على اكتساب نظرة زاهدة بل وعدمية أحيانا الى وجود الانسان . ولما اكتشف في افريقيا طبيعة ماتزال عذراء ، ازداد هذا الموضوع الهاجس المتمثل في العدم (Nada) حدّة وإلحاحاً في نفسه . (انظر «الظافر لا يكسب شيئا» هذا الى جانب اتخاذه لوناً جديداً في نمط كتابته .

البطلان الرئيسيان في قصة (ثلوج كليمانجارو) هما كاتب امريكي «هاري مرجان» (Harry Morgan) وزوجته . وكلاهما محصوران في السهوب الافريقية ذات الأعشاب العالية ، على مقربة من أعلى قمة بهذه القارة في جبل كليمانجارو الذي يعني (في اللغة السواحلية «بيت الله») .

لقد تأخر وصول الاسعافات ولا بدّ من الاسراع في إجلاء «هاري» المصاب بداء أكال (gangrène) خطير . وهذا الانتظار المقلق والمطوق بنعيق الغربان والطيور الجارحة أتاح للزوجين فرصة الانسياق في أحاديث مكاشفة ومصارحة حاسمة ، كما سمح للكاتب أن يعود بذاكرته الى الوراء ، وأن يقدم حصيلة حياته .

لقد ولّى ذلك الزمن الذي كان فيه فارس مغامرات ، وصاحب فحولة ، وصار اليوم عنه بعيدا . ولم يبق له من زواجه الفاشل بإحدى

مترفـات النســاء سوى شعور بـالمرارة والخيبـة والتقزز . وهـا هو ذا يحسّ باقتراب ساعة الرحيل من هـذه الحيـاة الـدنيـا ، وكم ودّ لو أنـه أتمّ تحرير مـذكراتـه على الأقـل ، غير ان الآوان قـد فـاتـه ، ومـا عتم أن ألمّ بـه الاحتضار ، ودخل بهذيانـه ذلـك على قمم كليمـانجـارو في النزع الأخير من حياته .

واذا كان الموضوع الرئيسي المتمثل في مصير الانسان والبحث المـاورائي مركز هذه القصة الكبيرة فان هيمنغواي لايقنع بشرحه شرحا موجزا ، بل راح بموهبته الأدبية الممتازة ، ومقدرته الفائقة على الكتـابـة ، يبرز مـدى ثقل هذا الموضوع وتعقّـده . ويستعين على ذلـك بـاستعمال المنظور الزمني في حـذق ومهـارة . ولعلّ هيمنغواي قـد تـوصّـل في هـذه القصـة أكثر من غيرها الى اعطاء القارئي احساسا بتشـابـك الفترات الزمنيـة المختلفـة التي يتكوّن منها الزمن البشري : زمن التذكر ، والانتظار ، والأزل .

ان زمن التـــذكر بـــالنسبـــة الى هـــاري (Harry) هـو زمن الشبـــاب الطـائش والمضطرب ، الحـافـل بـالنســاء ، وبـالعراك والخصـام ، وحيـاة تتخللها انتصارات الغواية التي لا جدوى منها . ويرى النقاد بهـذا الصـدد أن كثيرا من الشواهد تشير هنا الى صروف سيرته الذاتيـة . وقـد سبق ان رأينا آنفا كيف اختار هيمنغواي ، شأنه في ذلك شأن بطل قصته ، القـارة الافريقية فرارا من غرور المجتمع الأمريكي ونفاقه . فعنـدمـا نزل «هـاري» بكينيا كان لا يزال مشبعا بالقيم الغربية ومتأثرا بهـا رغم أنفـه . وهـا هي ذي تلك القيم تبرز من جديد في ساحة ذكرياته ، وفي علاقاته بزوجته . والمعروف أن صـورة المرأة الامريكيـة لـدى هيمنغـواي ابعـد مـــا تكـون عن المـدح والإطراء . فهي غـالبـا مـاتمثـل سرابـا كاذبـا وخطرا داهمـــا في نظر بطـــل القصـــة : اغراء وفتنـــة وإفســـاد . وهي التي تبعـــده عن

المثل الأعلى ، وتوقعه في أرذل زواج ، وفي حياة يومية سطحية .

ومن الغريب أن داء الأكال الذي اصاب «هاري» (Harry) انما هو عقاب على حياة فاسدة (سواء على صعيد الحياة الأدبية أم في مجال الحياة الزوجية) وآية تبشر بحدوث خلاص ممكن . ان «هاري» يسلم نفسه ، وكأنه في مطْهرٍ ، الى اختبار الذكرى ، واستحضار الذاكرة في انتظار التغيير النهائي للحالة الرمزية ومستواها .

ومن المؤكد أن ذريعة هذا الانتظار ـ أو ربما جاز لنا ان نتحدث هنا عن مرحلة انتقال ـ يقدّمها وصول الطائرة التي تأتي لانقاذ البطل ، لكن القارئ قد ادرك مع «هاري» في الواقع ان الخلاص الحقيقي هو في موضع آخر . فهو يتشكل في صورة عودة الى الذات ، وفي تمجيد الحين الذي يتدارك فيه الزمن الضائع . وهكذا فان «هاري» يعيش حاضره كما لو كان تعاقبا وتتابعا لحركات وانطباعات تتصل بالالم وبالغضب والمرارة . وهذه المشاعر الحتدّة «محصورة» الى حد ما ، بين الماضي اللجوج الملحاح ، والمستقبل المزعج ، والباعث على الخوف والقلق . وتبدو على طرفي نقيض مع ما ينتاب «هاري» من تطلعات وتوترات روحية تقذف به على نحو أسرع وأبعد (بواسطة الموت) الى السكينة والحقيقة الأزليتين .

والفصل الأخير من النص ، وهو ذلك التحليق الرمزي فوق الجبل المقدس (بيت الله) هو ، دون شك ، أجمل النصوص وأشدها كثافة . فهو يطابق المرحلة النهائية لتلقين البطل أسرار معتقداته .

ونحن واجدون في معظم الثقافات القديمة نصوصا ميتولوجية تبرز شخصا ذا مقدرة خارقة يقوم برحلة سحرية أو صوفية في الزمان والمكان . وبذلك يظهر هذا الشخص الساحر ، أو المحارب ، أو النبي صفاته الخارقة ، ويدلُّ سائر الأمّة على طريق الزهد والنجاة .

وكما أن «امبيـدوكل» (Empédocle) الفيلسـوف الاغريقي الـذي كان تخليه عن نعليه على قمة جبل «إتنا» (Etna) نهايـة لتجربـة صوفيـة ، فـان «هاري» سينهي هو أيضا انسلاخـه وتحوّلـه على قمم كليمانجـارو . وحتى لو كان هذا التحليق محض استيهـام من رجل محتضر ، فمن الواضح ان البطل قد انتقل منذ ذاك الى الجهة الأخرى من مرآة المظاهر ، الى الجانب الآخر من الـواقـع الحـادث متخلصـا ـ كالفهـد ـ من هيكل عظمي مـزعـج لـه ومضايق . ان هذه الجثـة التـافهـة لرمز مجـازي للفسـاد والخـداع . وهـذا البحث عن الأصالة يـدفع «هـاري» الى تقبل الموت برضى نفس وربـاطـة جأش بعد ان حاول اعادة الاعتبار الى ماضيه بواسطة الكتابة .

ليس مـوضـوع العـدم (Nada) والفراغ الـوجـودي لـدى هيمنغـواي بـالموضوع الطـارئ . ذلـك ان الكاتب ينتمي الى جيل («جيل ضـائـع») ، والى حقبة تاريخية محددة كل التحـديـد . وبهـذا الصـدد يرى النقـاد على العموم في اللجوء الى هـذه الفكرة الرئيسيـة في المـوضـوع تعبيرا عن أزمـة اصـابت قيم المجتمع البرجوازي الغربي خـلال الفترة الفـاصلـة بين الحربين . ومن ثم ما نلمسـه من احسـاس مـأسـاوي يسود معظم نصوص هيمنغواي . (ولو ان ثلوج كليمانجارو تبدو وكأنها قصة ذات خاتمة متألّقة) . ومع ذلـك فالذي يذهب اليه روجر آسلينو هو ان :

«(...) نظرة هيمنغواي الى العـالم ظلت نظرة مـأسويـة . وقـد أكـدت ذلك التباين الأبدي بين دوام الطبيعة واستمرارها والطـابع الزائل للوجود البشري» .[1]

أما من جهة الأسلوب فانّ قصـة ثلوج كليمـانجـارو تسجل انتقـالا بين مرحلتين وضعت احـداهمـا تحت شعـار النمـوذج الـواقعي ، على حين تتسم الثانية بنزوع واضح الى الرمزية . وربمـا أمكن التحـدث في هـذه الحـالـة

بالذات عن كتابة «مختلطة» او مخضرمة . والواقع ان الأمر يتعلق هنا بخليط دقيق بين حالات من المناجاة الذاتية والمحاورات . فالمناجاة الذاتية مكلفة باسترجاع المدة المقطعة التي استغرقتها ذكريات هاري واستحضارها بوتائرها المختلفة . والتقنية المستعملة تذكرنا بتقنية مؤلفي «تدفّق الوعي» (Stream of consciousness) (وولف ، جويس (WoolF Joyce) وتتخلل هذه المحاورات الحادة في تبادلها والمقتضبة تطور الحركة وارتفاع حدّة التوتر لدى الزوجين .

إن هيمنغواي ليقيم الدّليل على مايتحلى به من صفات الملاحظ الدقيق والمحلل الذي لا يجامل ولايلين . وهي الصفات التي منحته شهرة وذيوع صيت . والذي نلاحظه على الخصوص هو استعماله المثير للحواس المختلفة (الشم والسمع والبصر) لدى «هاري» . وهناك تباين واضح بين هذه المذكرات المقتضبة والمتصلة في اغلب الأحيان بالطبيعة ، وضخامة حركة المناجيات الذاتية والنهاية الحالة فوق الجبل . هذا ويرى «زوجر اسلينو» أنه :

«يمكن القول بصورة عاقة اذا ما استعملنا التعابير البلاغة القديمة ، أن فن هيمنغواي يعتمد كله على الأسلوب غير المباشر او التورية أو المجاز المرسل . فهو دائم الإقلال في القول لكي يوحي بالكثير ، وكثير الاقتصار في وصفه على الجزء لكي يترك للقارئ مهمة تخيل الباقي وتصوره» .[2]

وهذه المقدرة على استحضار الكتابة لدى هيمنغواي تتجلى أوضح ما تكون في قصته «ثلوج كليانجارو» الشهيرة .

وكما أن شهرة «فوجي ياما» (Fuzi yama)] مدينة لجميع الشعراء الذين ما انفكوا يتغنون بها فان جبل كليانجارو قد دخل ، بفضل هيمنغواي ، عالم الأسطورة الأدبية . ان ثلوج كليانجارو لتمثل كذلك :

وبطريقتها الخاصة إحدى القمم (وما في هذا القول من مجاز او مبالغة) في مؤلفات هيمنغواي . فقد استطـاع ، انطلاقـا من حكايـة صغيرة أو طرفـة أوردهـا صحفيٌ ، أن يستبين المغـزى العميـق لأسطـورة عـالميـة . وربمـا استطاع بهذه الوسيلة ان يستبق او يحدس المثل الرمزي الذي ضمنه قصتـه «الشيخ والبحر» . وهـذان العملان الأدبيـان شـاهـدان على مـدى اشتـداد البحث اللـذي لا ينقطـع عن الحيـاة الروحيـة ، وعن السعي الى التماسهـا باستمرار .

رشيدة يلّس شاوش

ترجمة : حسن بن مهدي

هوامش

(1) روجر اسلينو : ارنست هيمنغواي ، باريس ، سيغيرس 1972 الصفحة 53

(2) روجر أسلينو : المصدر نفسه ، الصفحتان 78 و 79 .

الشيـــخ والبحــر

كان رجلاً عجوزاً يصيد السمك وحده في قارب عريض القعر في «تيار الخليج» ، وكان قد سلخ اربعة وثمانين يوماً من غير أن يفوز بسمكة واحدة . وفي الأيام الاربعين الأولى كان يصحبه غلام صغير . حتى إذا قضى اربعين يوماً من غير ان يوفّق إلى صيدٍ ما ، قال أبوا الغلام لابنيهما ان الشيخ منحوس نحساً لا ريب فيه ولا برء منه ، وسألاه ان يعمل في قارب آخر ما لبث أن فاز بثلاث سمكات رائعات في الاسبوع الاول . ولقد أحزن الغلامَ أن يرى الشيخ يرجع كل يوم خاليَ القارب ، فكان ما يفتأ يمضي للقائه ويساعده في حمل صنانيره الملتفّة أو مُحجنه وحربونه والشراع المطويّ حول السارية . وكان الشراع مرقعاً بأكياس دقيق عتيقة ، فهو يبدو وقد طُويَ على هذه الشاكلة أشبه ما يكون براية الهزيمة السرمدية .

وكان الشيخ معروقاً شاحباً انتشرت في مؤخر عنقه تجاعيد عميقة ، وعلَت خديه القروح السمراء الناشئة عن سرطان الجلد غير المؤذي الذي هو ثمرة انعكاس الشمس على صفحة المياه في المناطق الاستوائية . وكانت تلك القروح تغطي جانبي وجهه . على حين كانت في يديه ندوب عميقة الغور خلّفتها الحبال التي

علقت في أطرافها ضروب من الاسماك الثقيلة . ولكن أياً من هذه الندوب لم يكن غضاً . كانت قديمةً قِدَم التأكل في صحراء خلوٍ من السمك .

كان كل شيء فيه عجوزاً خلا عينيه . وكان لونها مثل لون البحر . وكانتا مبتهجتين باسلتين .

وقال له الغلام فيما هما يصعدان الضفة بعد أن دفعا القارب إلى اليابسة .

– «سانتياغو ! في استطاعتي أن أذهب معك من جديد . لقد فزنا بشيء من المال .»

كان الشيخ قد علّم الصبي صيد السمك ، وكان الصبيّ يحبه .

وقال الشيخ :

– «أنت تعمل الآن على ظهر مركب محفوظ . إبقَ حيث أنت» .

– «ولكن اذكرْ كيف سلختَ سبعة وثمانين يوماً من غير أن توفّق إلى سمكة واحدة ثم تدفقت علينا الاسماك الكبيرة ، فكنا نصطاد منها كلّ يوم عدداً غير يسير ، طوال أسابيع ثلاثة .»

فقال الشيخ :

– «أذكر ذلك . أنا أدري جيداً ان فراقك لي لم يكن ناشئاً عن شكوكك .»

– «بابا هو الذي أكرهني على فراقك . أنا ما أزال غلاماً صغيراً ، ويتعين عليّ أن أطيعه .»

فقال الرجل العجوز :

– «أدري . هذا شيء طبيعي جداً .»

– «ليس لديه ايمان .»

فقال الشيخ :

– «لا . أما نحن فايماننا قوي . أليس كذلك ؟»

فقال الغلام :

– «نعم . هل أستطيع أن أقدّم اليك شيئاً من الجعة في «السطيحة» ، ثم نحمل هذه الادوات كلها إلى البيت ؟»

فأجابه الشيخ :

– «ولم لا ؟ سوف أشربها بين الصيادين ..

وجلسا على «السطيحة» ، وأنشأ عدد من الصيادين يسخر من الرجل العجوز ، ولكن ذلك لم يستثر غضبه قط . أما الصيادون الشيوخ فنظروا اليه وقد عصر الحزن قلوبهم . ولكنهم لم يُظهروا ذلك ، وراحوا يتحدثون في كياسة عن إلتيار ، والأعماق التي قذفوا بخيوطهم اليها ، والجوّ الجميل المتواصل ، وعمّا شاهدوه . وكان الصيادون الذين فازوا برزقهم ذلك النهار قد دخلوا ، وشقّوا بطون اسماكهم وحملوها – ممدّدةً على لوحين خشبيين كان رجلان يترنحان عند طرف كل منهما – إلى المسمكة حيث انتظرت سيارة الثلج الكبيرة لتنقلها إلى السوق في هافانا . وكان الذين اصطادوا اقراشاً قد حملوها إلى مصنع الاقراش في الضفة الاخرى من الخليج ، حيث توضع على الآلات

الرافعة وتُزال أكبادها وتُقطع زعانفها ، وتُنزع جلودها ، ويقطّع لحمها قِدداً يُصار بعدُ إلى تمليحها .

وحين تهبّ الريح من ناحية المشرق كانت روائح مصنع الأقراش تملأ جنبات المرفأ . أما اليوم فلم تبلغ المرفأ غير رائحة واهنة لأن الريح انقلبت إلى الشمال ثم همدت فجأة . وكان الجو جميلاً مشمساً على «السطيحة» .

وقال الغلام :

– «سانتياغو !»

فأجابه الشيخ :

«نعم !» . كان حاملاً كأسه يفكر في الايام الخالية .

– «هل تريد أن أذهبَ وآتيك بشيء من السردين تستعين به على الصيد غداً ؟»

– «لا . إذهَبْ والعب البيسبول . أنا لا أزال قادراً على التجذيف . ولسوف يلقي روجيليو الشبكة .»

– «كم أحبّ أن أذهب . وإذا كنت لا أستطيع أن اصطاد معك فليس يمنعني ذلك من أن أخدمك بطريقة ما .»

فقال الشيخ :

«لقد قدمتَ إليّ كأسا من الجعة . ويبدو لي أنك صرتَ رجلاً قبل الاوان .»

– «كم كان عمري عندما اصطحبتني ، أول مرة . في قارب ؟»

– «خمس سنوات . ولقد كدتَ تقتل عندما حملتُ السمكة

وكانت ما تزال غضة العود ، فكادت تمزّق القارب إرباً إرباً . هل تذكر ؟»

– أستطيع أن أذكر ذنبها يضرب ويخبط ، ومقعد التجذيف ينكسر ، والدويّ الذي أحدثه ذلك التضريب . أستطيع أن أذكر كيف قذفتْ بي إلى مقدّم المركب حيث كانت الخيوط الندية الملتفّة . لقد شعرت بالمركب كله يرتجف ، وسمعت صدى ضربك للسمكة الضخمة وكأنك تجتثّ بالفأس شجرة من الاشجار ، وشممت رائحة الدم العذبة تفوح من حولك .»

– «هل تذكر ذلك حقاً أم اني أنا الذي حدثتك به ؟»

– «أنا أذكر كلّ ما وقع لنا منذ أوّل يوم انطلقنا فيه معاً .»

ونظر الشيخ العجوز اليه بعينين ناضحتين بالحب والثقة . عينين لوّحتهما أشعة الشمس ، وقال:

– «لوكنتَ ولدي لانطلقتُ بك وغامرتُ ولكنك ابن أبيك وأمك ، وأنت تعمل على قارب محفوظ .»

– «هل آتيك بالسردين ؟ في استطاعتي أن أجيء بأربعة أطعام . أنا أعرف من أين .»

– «لا تزال أطعام اليوم عندي . لقد وضعتها في الصندوق وغمرتها بالملح .»

– «دعني أذهب وآتيك بأربعة جديدة .»

فقال الشيخ :

– «جيء بواحد فقط .»

إن أمله وثقته لم يعترهما الوهن قط . ولكن الانتعاش دبّ فيهما كما ينتعشان حين يهب النسيم العليل .

فأصرّ الصبيّ :

– «بل باثنين .»

فما كان من الشيخ إلا أن أقرّه قائلاً :

– «لا بأس ، إيتني باثنين . أنت لم تسرقهما ؟»

– «أنا لا أعفّ عن ذلك . أما هذه الاطعام فقد اشتريتها» .

فقال الشيخ .

– «شكراً .»

كان أبسط من أن يتساءل متى تعوّد الاذعان . ولكنه عرف أنه تعوّده ، وعرف انه غير معيب ، وليس يضير الكبرياء الحقيقية على الاطلاق .

وقال :

– «سوف يكون الجوّ رائقاً ، غداً ، بعد هذا التيار .»

وسأله الغلام :

– «إلى أين تريد أن تذهب ؟»

– «إلى أبعد ما أستطيع ، لكي أعود حين تتحول الريح . يجب أن أنطلق قبل أن يبزغ الفجر .»

فقال الغلام :

– «سوف أحاول أن أحمل معلّمي على الانطلاق إلى عرض

البحر . وهكذا يكون في استطاعني أن أسارع لمساعدتك إذا اصطدتَ شيئًا كبيراً حقاً .»

– إنه لا يحب الانطلاق إلى مدى بعيد» .

فقال الغلام :

– «هذا صحيح . ولكني أحاول أن أرى شيئًا لا يستطيع هو أن يراه : ولنقلْ انه طائر يختلس شيئًا ، وعندئذ أغريه بالجري وراء الدلفين .»

– «هل يشكو ضعفاً في البصر ؟»

–«إنه أعمى تقريبا .»

فقال الشيخ :

– «هذا شيء غريب . ذلك لأنه لم يصطد السلاحف البحرية في يوم من الايام . وهذا هو الذي يقتل العينين .»

– «ولكنك سلختَ عدة سنوات تصطاد السلاحف في «ساحل البعوض» ، ومع ذلك فعيناك جيدتان .»

– «أنا عجوز غريب .»

– «ولكن هل تظن انك لا تزال من القوة بحيث تستطيع أن تصطاد سمكة كبيرة ، كبيرة حقاً ؟»

– «أظن ذلك . وإلى هذا فهناك حيلٌ كثيرة .»

فقال الغلام :

– «فلنحمل هذه الادوات كلها إلى المنزل . وهكذا أستطيع

أن آخذ الشبكة الخاصة بصيد السردين واصطاد منه شيئاً كثيراً .»

وجمعا العُدة من القارب . وحمل الشيخ السارية على كتفه ، وحمل الغلام الصندوق الخشبي المنطوي على الخيوط السمراء الملتفّة المضفورة ضفراً محكماً ، والمحجن ، والحربون . وكان صندوق الأطعام في مؤخر القارب إلى جانب الهراوة التي تُصطنع لاخضاع السمكات الضخام بعد اصطيادها وجذبها . إن أحداً لن يسلب عُدّته . ومع ذلك فمن الخير أن يُحمل الشراع والخيوط الثقيلة إلى البيت ما دام الندى يؤذيها . وعلى الرغم من أن الشيخ كان على مثل اليقين من أن أحداً من أهل البلد لن يسرقه ، فقد قال في ذات نفسه إن في ترك مِحْجن وحربون في قعر قارب ما إغراء بالسرقة لا داعي له .

وتقدما معاً نحو كوخ الشيخ ، وولجا بابه المُشْرع . وأسند الرجل العجوز الساريةَ وشراعها المطويّ إلى الجدار ، ووضع الغلام الصندوق وسائر الادوات إلى جانبها . وكان طول السارية يكاد يبلغ طول الغرفة الوحيدة التي يتألف منها الكوخ . وكان الكوخ مبنياً بتلك المادة الصلبة التي يدعونها «غوانو» Guano والتي لا تعدو ان تكون سعف النخلة الملكية المتراكم . وكان فيه سرير ، وطاولة ، وكرسي . وكان الطبخ يجري على الفحم في جانب من أرضه القذرة . وعلى الجدران السمراء ، حيث برزت هنا وهناك أوراق الـ «غوانو» المذللة المتراكمة ذات النسيج

الصلب ، كانت صورتان ملونتان : احداهما تمثل قلب يسوع الاقدس والاخرى تمثل عذراء كوبر ، وكانت هاتان الصورتان من آثار زوجته . وذات يوم كان الجدار مزداناً بصورة ملونة لزوجته نفسها ، ولكن شعور الشيخ بالوحدة كان يتعاظم كلما نظر اليها . وهكذا نزعها عن الجدار ووضعها على الرفّ الذي في وسط الغرفة تحت قميصه النظيف .

وسأله الغلام :

– «ما عندك من الطعام ؟»

– «قدِر من الأرزّ المُزَعْفَر مع السمك . أتحب أن تأكل شيئًا من ذلك؟»

– «لا . سوف آكل في البيت . هل أضرم لك النار ؟»

– «لا . سأضرمها فيما بعد .وقد آكل الارزّ بارداً .»

– «هل أستطيع أن آخذ شبكة صيد السردين ؟»

– «طبعا .»

ولم تكن عند الشيخ شبكة خاصة بصيد السردين ، وكان الغلام يذكر أنه قد باعها . ولكنهما كانا يمثّلان هذه الكوميديا الصغيرة كل يوم . ولم تكن ثمة قدر من الأرزّ المزعفر مع السمك . وكان الغلام يعرف ذلك أيضا .

– «إن الخمسة والثمانين رقم سعيد . فماذا تقول لو رأيتني راجعاً بسمكة تزن أكثر من الف رطل ، في قاربي ذاك ؟»

– «سوف آخذ الشبكة وأمضي لصيد السردين . هل لك أن

تقعد عند المدخل تحت أشعة الشمس ؟»

– «أجل . عندي جريدة البارحة ، وأحب أن أطالع الصفحة الخاصة بالبيسبول» .

ولم يدرِ الغلام ما إذا كانت جريدة البارحة جزءًا من الكوميديا أيضا . ولكن الرجل العجوز سحبها من تحت السرير .

ثم أوضح :

– «لقد أعطاني بيريغو إياها في الـ«بوديغا .»

– «سوف أعود حين أحصل على السردينات . ولسوف أبقي حصتك وحصتي في الثلج ، وغداً صباحاً نقتسمها . وعندما أرجع تحدثني حديث البيسبول .»

– «اليانكيون لا يمكن أن ينهزموا .»

– «ولكني أخشى هنود كليفلند .»

– «ليكن إيمانك باليانكيين قوياً ، يا بُنيّ . فكّر في دي ماغيو العظيم .»

– «أنا أخشى أغمار ديترويت وهنود كليفلند في وقت واحد .»

– «كن حذراً ، وإلاّ خشيتَ حمر سينسيناتي ، وجوارب شيكاغو البيضاء .»

– «أدرُسْها ، وخبّرني عندما أعود .»

– «ألا ترى ان علينا أن نشتري ورقة يانصيب منتهية

بخمسة وثمانين ؟ غداً هو اليوم الخامس والثمانون .»

فأجابه الصبيّ :

– «هذه فكرة . ولكن ما قولك بالسبعة والثمانين التي بلغها رقمك القياسي الكبير ؟»

– «لن يقع ذلك مرتين . هل تظنّ أن في استطاعتنا أن نجد ورقة تنتهي بخمسة وثمانين ؟»

– «في إمكاني أن أطلب واحدة .»

– «عُشْر ورقة فقط . وهذا يساوي دولارين ونصف . ممّن نستطيع أن نقترض هذا المبلغ ؟»

– «هذا شيء سهل . في ميسوري دائما أن أجد من يقرضني دولارين ونصف .»

– «وأحسب أني أنا أيضا قادرٌ على ذلك . ولكني لا أحاول أن استدين . إن المرء يستدين اولاً ، ثم يستعطي .»

فقال الصبي :

– «إلتحفْ جيداً ، أيها الشيخ . تذكر أننا في أيلول .»

– «شهر السمكات الكبار . إن أيما انسان أن يعمل صياداً في نوار .»

فقال الصبي :

– «سوف أمضي التماساً للسردين .»

وحين رجع الفتى ، كان الشيخ نائماً في الكرسي ، وكانت الشمس قد غربت . ورفع الفتى البطانية العسكرية العتيقة عن

السرير ونشرها على ظهر الكرسي وفوق كتفي الرجل العجوز . كانتا كتفين غريبتين ، فهما ما تزالان قويتين برغم ان صاحبهما طاعن في السن . وكانت العنق لا تزال قوية ايضاً . وما كانت التجاعيد لتظهر كثيراً في هذا الوضع الذي انحنى فيه رأس الشيخ الى أمام . وكان قميصه قد رُقع مرات عديدة حتى لأصبح أشبه ما يكون بالشراع ، وكانت الرقع قد اتخذت ، بعد أن أنصلتها الشمس ، الف لون ولون . ومع ذلك فقد كان رأس الشيخ هرماً جداً ، ولم تكن على وجهه ، وقد أغمض عينيه ، أثارة من حياة . وكانت الصحيفة ملقاة على ركبتيه ، وكان ثقل ذراعه يحبسها هناك برغم نسيم المساء . أما قدماه فكانتا حافيتين .

وتركه الغلام مسترسلاً في رقاد ، وغاب عنه من جديد . حتى اذا عاد ألفاه نائماً ما يزال .

– «إنهض أيها الشيخ !» قال الغلام ذلك ووضع يده على إحدى ركبتي الرجل العجوز .

وفتح الشيخ عينيه . وبدا لحظة وكأنه يحاول أن ينتزع نفسه من أعماق حلمه . ثم افترّت شفتاه عن ابتسامة وسأله :

– «ما هذا الذي معك ؟»

فأجابه الغلام :

– «طعام العشاء . سوف تتناول طعام العشاء .»

– «أنا لست جائعاً جداً .»

- «هيا ، تناول طعامك . أنت لا تستطيع أن تصطاد السمك اذا لم تأكل .»

- «لقد وقع لي هذا من قبل .» قال الشيخ ذلك ونهض فتناول الصحيفة وطواها . ثم انه شرع يطوي البطانية .

فقال الصبي :

- «أبقِ البطانية عليك . أنت لن تنطلق للصيد من غير أكل ما دمتُ أنا حياً .»

فقال الشيح :

- «إذن فعِش دهراً طويلاً واعتنِ بنفسك . ما الذي سوف تأكله ؟»

- «لوبياء سوداء ، وأرزّ ، وموز مقليّ ، وشيء من اللحم المطبوخ .»

كان الغلام قد أتى بذلك كله من «السطيحة» في سْطَيلة ذات طبقتين . وكان قد وضع السكينتين والشوكتين والملعقتين في جيوبه ، وجعلها مجموعتين مستقلتين ولفّ كلاً منهما بمنديل من ورق .

- «من أعطاك هذا ؟»

- «مارتن . صاحب السطيحة .»

- «يجب أن أشكره .»

- «لا داعي ألى ذلك . فقد شكرته أنا .»

فقال الشيخ :

– «سوف أعطيه لحم البطن من إحدى السمكات الكبار . هل قدم الينا ذلك أكثر من مرة ؟»

– «أحسب ذلك .»

– «إذن يجب أن أعطيه شيئًا أكثر من لحم البطن . إنه كريم حقاً .»

– «لقد أرسل الينا زجاجتي بيرة أيضا .»

– «أنا أحب البيرة في علب الصفيح أكثر .»

– «أدري . ولكن هذه معبأة في زجاجات . إنها بيرة هاتوي . ولسوف أعيد الزجاجتين» .

فقال الشيخ :

– «هذا لطف منك كثيرا . هل ينبغي أن نأكل ؟»

فأجابه الفتى في رقة :

– «كنتُ أسألك أن تفعل . أنا لم أشأ أن أفتح السطيلة إلا بعد أن تبدي استعدادك لذلك .»

فقال الشيخ :

– «أنا مستعد الآن . كل ما في الأمر أني كنت أريد أن أغسل وجهي ويديّ .»

أين يغتسل ؟ كذلك فكّر الغلام . لقد كان ماء القرية العامّ على بُعد شارعين من كوخه . وكان ينبغي أن أحمل له الماء إلى هنا – كذلك فكّر الغلام – وأحمل صابونةَ ومنشفة جيدة أيضاً . أنا قليل الدراية حقاً . يجب أن آتيه بقميص آخر وسترة

للشتاء . ليس هـذا فحسب ، بل يجب أن آتيـه أيضـاً بحـذاء من نوع ما ، وبطانية أخرى .

وقال الشيح :

– «إن لحمك المطبوخ هذا ممتاز .»

فسأله الغلام :

– «حدثني عن مباريات البيسبول .»

– «في المباراة الأميركية فاز اليانكيون كما قلت .»

فأخبره الغلام :

– «لقد انهزموا اليوم .»

– «هذا لا يُفيد شيئًا . لقد عاد دي ماغيو العظيم سيرته الأولى .»

– «إن في الفريقين لاعبين آخرين .»

– «طبعـا ، ولكنـه هـو الـذي يرجـح الكفـة . ففي المبـاراة الأخرى بين بروكلين وفيـلاديلفيـا ، يجب أن أقف في جـانب بروكلين . ولكني أعـود فـأفكر في «دك سيسلر» وتلـك الضربات العظيمة في الملعب القديم .»

– أنا لم أرَ في حياتي لاعباً يقذف الكرة إلى أبعد مما يقـذفهـا هو .»

– «هـل تـذكر تلـك الأيـام التي كان يفـدُ فيهـا على «السطيحـة» ؟ لقـد رغبت في ان اصطحبـه الى الصيـد ، ولكن الحياء حـال بيني وبين دعوتـه الى ذلـك . تم سـألتـك أن تـدعوه فغلب عليك الحياء ايضاً .

– «أدري . كانت غلطة كبيرة . فقد كان من الجائز أن يمضي معنا . ولو فعل ، إذن لفزنا بذكرى لن ننساها طول حياتنا .»

فقال الشيخ :

– «لشدّ ما أحب أن أصطحب دي ماغيو العظيم الى الصيد . يقولون ان اباه كان صياداً . ولعله كان فقيراً مثلنا ، فهو يستطيع أن يفهمنا .»

– «إن والد سيسلر العظيم لم يكن فقيراً قط . وكان ابوه هذا يشترك في المباريات الكبرى وهو في مثل سني .»

– «حين كنت في مثل سنك كنت واقفاً امام السارية في مركب شراعي يطوف سواحل افريقية ، وكنت قد رأيت الأسود على الشطآن ، بعد أن هبط الليل .»

– «أدري . لقد حدثتني عن ذلك .»

– «عمّ ينبغي ان نتحدث : عن افريقية أم عن البيسبول ؟»

فقال الفتى :

– «عن البيسبول في ما أظن . حدّثني عن جون ج . ماك غراو العظيم» (ولفظ الفتى «جوتا» بدلاً من «ج») .

– «كان من عادته أن يَفِدَ على «السطيحة» بعض الاحيان أيضاً ، في الايام الخالية . ولكنه كان جافيا . فظّ الكلام ، يجتنب الناس معاشرته حين يكون سكران . ولقد كان ذهنه مشغولاً ابداً بسباقات الخيل انشغاله بمباريات البيسبول . وعلى أية حال فقد كانت جيوبه ملأى ، دائماً ، بلوائح الخيل . وكثيراً

مـا كـان يذكـر اسماء الأفـراس فـي أحـاديثـه التلفونيـة» .

فقال الغلام :

– «كان منظّماً عظيماً . بل ان ابي يعتقـد انـه اعظم المنظّمين على الاطلاق .»

– «لأنـه كان يجيء الى هنـا كثيراً . ولو ان دوروتشر واصل المجيء الى هنا كل عام لعدّه أبوك اعظم المنظّمين .»

– «من هو المنظّم الاعظم حقاً : لوك أم مايك غونزاليز؟»

– «أحسبُ انهما فرسا رهان .»

– «أماأحسن الصيادين فأنت من غير شك .»

– «لا . أنا أعرف آخرين هم أفضل مني .»

فقال الغلام :

– «هناك كثير من الصيادين البـارعين وقليل من الصيـادين العظام . ولكن ليس هناك واحد مثلك .»

– «شكراً . انت تُـدخـل السعـادة الى قلبي . ارجـو أن لا تمرّ بنا سمكة هي من الضخامة بحيث تُثبت أننا كنا مخطئَين .»

– «ليس هناك مثل هذه السمكـة اذا كنت لا تزال قويـاً كما تقول .»

فقال الشيخ :

– «قد لا أكون قوياً بقدر مـا أظن . ولكني أعرف كثيراً من الحيل ، وإن عندي عزيمة صادقة .»

– «ينبغي أن تـأوي إلى السرير الآن لكي تنهض نشيطـا في

الصباح . سوف أعيد هذه الأشياء كلها إلى السطيحة .»

– «طاب مساؤك إذن . سوف أوقظك في الصباح .»

فقال الغلام :

– «أنت ساعتي المنبهة .»

فقال الرجل العجوز :

– «لست أدري . كل ما أدريه أن الفتيان الصغار ينامون في ساعة متأخرة ويجدون صعوبة في أن يستيقظوا صباحاً .»

فقال الشيخ :

– «أستطيع أن أتذكر ذلك . سوف أوقظك في الوقت المناسب .»

– «أنا لا أحب أن يوقظني هو . إن ذلك يُشعرني وكأنني دونه مقاماً .»

– «أدري .»

– نم جيداً ، أيها الشيخ .»

وغادر الفتى المكان . كانا قد تناولا الطعام وليس على الطاولة مصباح . ولقد خلع الشيخ بنطلونه ومضى إلى السرير تحت جنح الظلام . ولف بنطلونه ليتخذ منه وسادة واضعاً الجريدة في داخله . ولفّ نفسه في البطانية ، واستلقى على الصحف العتيقة الأخرى التي غطّت نوابض السرير .

وما هي إلا فترة قصيرة حتى استسلم للرقاد وحلم بأفريقية يوم كان صبياً وبالشطآن الذهبية الطويلة ، وبالشطآن الناصعة

البياض إلى حد يؤذي العين ، وبالرؤوس العالية ، والجبال العظيمة السمراء . لقد انتهى إلى أن يحيا ، الآن ، كل ليلة ، في ذلك الساحل الافريقي . وفي أحلامه سمع هدير الأمواج ، ورأى قوارب الزنوج تنطلق من خلالها . وعطّرت رقاده ريّا القطران وجبال القنّب القديمة التي يستروحها المرء على متون المراكب . وعند الصباح ، كانت نسائم البر تحمل اليه رائحة إفريقيا نفسها .

وكان من دأبه حين يتنشق نسائم البر أن ينهض من فراشه ويرتدي ملابسه ويمضي فيوقظ الغلام . ولكن عبير نسائم البر أقبل ، هذه الليلة ، في ساعة مبكرة جداً . «في ساعة مبكرة جداً» ، كذلك قال في غمرة حُلمه . واسترسل في الرقاد لكي يرى قمم الجزائر البيضاء تنهض من اعماق البحر . وبعد ذلك تبدّت له في الحلم موانيء «جزر الكاناري» ومراسيها المختلفة .

ولم يعد يرى في ما يرى النائم شيئاً من العواصف أو النساء أو الأحداث الكبيرة . بل لم يعد يرى لا السمكات الكبار ، ولا المشاحنات ، ولا مباريات القوى ، وحتى زوجته نفسها لقد أمسى الآن يحلم بالأماكن فقط وبالأسود السارحة على الشاطيء . لقد لعبتْ كالقطط الصغيرة في الغسق ، ولقد أحبها هو كما أحب الغلام ، ولم يرَ الغلاَم في منامه قط .

ونهض الشيخ من فراشه ، ونظر الى القمر من خلال الباب المفتوح ، ونشر بنطلونه وارتداه . ثم انه بال خارجَ الكوخ ،

واتخذ سبيله الصاعد لكي يوقظ الغلام . كان يرتجف من برد الصباح ، ولكنه عرف ان هذه الارتجافة سوف تُدفئه ، فما هي إلا برهة حتى ينكبّ على مجذافيه .

ولم يكن على باب البيت الذي يقطنه الغلام قفلٌ ما ، ففتحه الشيخ ، ودخل البيت بقدميه الحافيتين في تؤدة وسكينة . كان الغلام نائماً في سرير صغير قائم في الغرفة الأولى ، وكان في ميسور الشيخ أن يتبيّنه في وضوح على ضوء القمر المحتَضَر . وفي رفق أمسك باحدى القدمين الرخصتين ورفعها في الهواء ، حتى استفاق الغلام واستدار ، ونظر وحنى الشيخ رأسه ، فتناول الغلام بنطلونه عن الكرسي المجاور للسرير ، ثم استوى قاعداً في الفراش وارتدى البنطلون .

وغادر الشيخ البيت : ومضى الغلام في إثره . كان النعاس لا يزال في عينيه ، فوضع الشيخ ذراعه على كتفيه وقال :

- «أنا آسف لايقاظي إياك» .

فقال الغلام :

- «دع عنك ذلك . النهوض باكراً هو وحده اللائق بالرجال .»

وهبطا الطريق الى كوخ الشيخ . وعلى طول الطريق وتحت جنح الظلام ، كان رجال حفاة يتحركون ، وقد حملوا سواري قواربهم على أكتافهم .

حتى اذا انتهيا الى الكوخ حمل الغلام الخيوط في السلة ،

والحربونَ والمحجن . وحمل الشيخ سارية القارب والشراع الملتف حولها على كتفيه .

وسأله الغلام :

– «هل تريد قهوة ؟»

– «من الأفضل أن نضع العدّة في القارب . ثم نحتسي شيئًا منها .»

وتناولا القهوة بعلبني صفيح من علب الحليب المكثف ، في حانة تستقبل الصيادين في الصباح الباكر .

وسأله الغلام :

– «هل نمت نوماً عميقاً ، ايها الجد ؟»

كان يتخذ سبيله الى اليقظة ، الآن ، على الرغم من انه كان من العسير أن يذود النعاس عن جفنيه .

فأجابه الشيخ :

– «أجل ، نمت نوماً عميقاً ، يا مانولين . أنا واثق من النجاح اليوم .»

فقال الغلام :

– «وكذلك أنا . والآن يجب ان آتي بنصيبك وبنصيبي من السردين ، وان أحمل اليك أطعامك الجديدة . ان معلمي هو الذي يحمل عدّتنا ، وليس لأحد الحق في أن يمسها على الاطلاق .»

فقال الشيخ :

– «لكلّ طريقته . لقد أجزت لك ان تحمل أي شيء وانت بعد في الخامسة من العمر .»

فقال الفتى :

– «أعرف ذلك .ولسوف أرجع على التوّ . خُذ مقداراً آخر من القهوة . إن لنا حساباً جارياً هنا .»

وانطلق حافي القدمين ، فوق الصخور المرجانية ، إلى مستودع الثلج العمومي الذي حُفظت فيه الأطعام .

واحتسى الشيخ قهوته في تؤده . فقد كانت كل ما سيدخل جوفه طوال ذلك النهار ، وكان يعرف جيداً أنه في أمسّ الحاجة اليها . فمنذ عهد طويل وتناوُل الطعام يزعجه ، فهو لا يصطحب أيما غذاء أبداً . كانت عنده زجاجة ماء في مقدم القارب ، وكان ذلك كل ما يحتاج اليه طوال النهار .

ورجع الغلام حاملاً السردين والطُعمَين وقد لفّ هذين الأخيرين بإحدى الصحف العتيقة . وهبطا المجاز المؤدي إلى القارب ، غارزَيْن أقدامها في الرمل الحَصِب ، ورفعا القارب وقذفا به ، فانساب على وجه الماء .

– «أتمنى لك حظاً سعيداً ، أيها الجد .»

– «وأنا أتمنى لك حظاً سعيداً .» كذلك أجابه الشيخ : وشدّ أربطة المجذافين القنّبية الى الوتدين ، وانحنى الى امام متكئًا على طرفي المجذافين المسطحين المندفعين في الماء ، وشق طريقه الى خارج المرفأ في غمرة من الظلام . وكانت قد انطلقت في عرض

اليمّ قوارب أخرى مقبلة من السواحل المجاورة . ولقد سمع الشيخ أصوات مجاذيفها وهي تلطم المياه وتدفعها على الرغم من انه ما كان قادراً على ان يتبيّنها ببصره بعد أن غاب القمر وراء الروابي .

وكان بعضهم يتحدث ، أحياناً ، في قارب ما . ولكن معظم القوارب كانت صامتة لا ينبثق منها غير أصوات المجاذيف . وتناثرت تلك القوارب بعد أن غدت بعيدة عن فم المرفأ ، واتجه كل منها الى جزء من المحيط كان يرجو أن يقع فيه على صيد سمين . وعرف الشيخ انه قد اوغل كثيراً . لقد خلَّف وراءه عبير الأرض ، وأنشأ يجذّف ويجذّف . وكانت كل ضربة مجذاف تقربه من ريّا المحيط الصباحية الصافية . لقد رأى الى أعشاب الخليج تتوهج في الماء توهجاً فوسفورياً ، بينما كان يجذّف في ذلك الجزء من الاوقيانوس الذي دعاه الصيادون «البئر الكبيرة» بسبب من عمقه المفاجيء البالغ سبعمئة قامة حيث تحتشد الأسماك على اختلاف ضروبها نتيجة للدرادير التي يحدثها التيار حين يصطدم بجدران قاع المحيط الشديدة الانحدار . هنا كان يتمركز الروبيان والسردين ، بل وتنشأ في بعض الأحيان مستعمرات من السبيدج في أعماق الثقوب . وكانت هذه ترتفع الى قريب من السطح عند المساء فتغتذي بها جميع الأسماك التائهة .

وفي غمرة من الظلام كان في ميسور الشيخ أن يستشعر أن الصباح يُغذّ الخطى . وفيما هو يجذّف انتهت الى سمعه ذبذبات

الأسماك الطائرة وهي تنبثق من الماء . وصفير اجنحتها القاسية وهي تحلّق في الظلام . وكان مولعاً جداً بالأسماك الطائرة لأنها كانت صديقته الرئيسية في عرض الاوقيانوس . كانت العصافير تثير شفقته ، وبخاصة سنونو البحر الصغيرة المهزولة الداكنة التي ما تفتأ تطير وتبحث ولا تكاد تجد شيئًا على الاطلاق . وقال في ذات نفسه : الطيور تحيا حياة أقسى من حياتنا نحن ، باستثناء الجوارح والطيور السُّراق . لماذا جُعلت العصافير نحيلة رقيقة الحاشية مثل سنونو البحر هذه ، ما دام الاوقيانوس وحشياً الى هذا الحد ، ان الاوقيانوس لطيف وجميل جداً ، ولكن في استطاعته أن يصبح وحشياً الى أبعد الحدود ، وفي مثل لمح البصر . ولا ريب في ان هذه العصافير الصغيرة التي تطير ، وتغوص ، وتقتنص – بأصواتها الهزيلة المحزونة – هي ارقّ من أن تحتمل حياة البحار .

وكان يدعو المحيط «البحرة» La mar وهو الاسم الذي يطلقه الناس باللغة الاسبانية على المحيط حين يتعشقونه . وفي بعض الأحيان كان اولئك الذين يتعشقون المحيط يذمونه أو يسبّونه ولكنهم كانوا يفعلون ذلك دائماً وكأنهم يتحدثون عن امرأة . وكان بعض الصيادين الأحدث سناً – اولئك الذين يصطنعون عوّامات تطفو بها صنانيرهم والذين يملكون زوارق بخارية اشتروها في الفترة التي بيعت خلالها اكباد الأقراش بأثمان غالية جداً – يدعون المحيط «البحر» El mar وهو اسم مذكر . كانوا

يتحدثون عنه بوصفه خصماً ، أو مكاناً ، بل بوصفه عدواً ايضاً . ولكن الشيخ كان لا يفكر فيه إلا ككائن مؤنث ، وإلا كشيء يهب المنن الجزيلة أو يحبسها . واذا كانت «البحرة» تسلك مسلكاً أحمق أو خبيثاً فلأنها لا تستطيع أن تفعل غير ذلك . إن القمر يذهب بصوابها كما تذهب المرأة بصواب الرجل – كذلك قال الشيخ في ذات نفسه .

كان يجذّف موصولاً . ولم يكن ذلك عسيراً عليه لأنه يحتفظ بسرعته دائماً ، ولأن سطح المحيط كان أملس صقيلاً باستثناء بعض الأخاديد التي كان التيار يُحدثها بين الفينة والفينة . وكان قد عهد الى التيار في أن يقوم بثلث المهمة ، حتى اذا بزغ الفجر أدرك أنه قد اندفع الى أبعد مما كان يرجو أن يبلغه في هذه الساعة . لقد جربتُ الآبار العميقة اسبوعاً كاملاً ، فلم أفز بشيء . كذلك قال في ذات نفسه . أما اليوم فسألقي شباكي في مستعمرات البينيث والخَنْزيري ، ولعلي أقع على واحدة ضخمة بينها .

وقبل أن يكتمل ضوء النهار أخرج الشيخ أطعامه ، وكاد يندفع مع التيار . وغاص واحد من تلك الأطعام الى عمق مقداره أربعون قامة . وغاص الطعم الثاني الى عمق خمس وسبعين قامة ، على حين غاص الثالث والرابع في المياه الزرقاء الى عمق مئة قامة ومئة وخمس وعشرين قامة على التعاقب . وكان كل طعم يتدلى مطأطىء الرأس وساقُ الصنارة في داخل

السمكة الطعم ، وقد شُدت وخيطت في إحكام ، على حين كان الجزء البارز من الصنارة ، القوس والرأس ، مغطي بالسردين الطازج . وكانت كل من سمكات السردين قد سُلكت من خلال عينيها الاثنتين بحيث شكل مجموعها ضرباً من الاكليل فوق الفولاذ الناتىء . وبكلمة ، لم يكن ثمة مليمتر واحد من تلك الصنارة المعدة لصيد احدى السمكات الكبار إلا وهو حسن الرائحة طيب المذاق .

وكان الغلام قد أعطاه اثنتين من سمك التنّ الصغير الطازج ، أو الخنّيزيري . وكان الشيخ قد علقها بخيطي الصنارة الأشد إمعاناً في الغوص ، فوترتاهما وكأنها الرصاص . أما الخيطان الآخران فكان قد علق بها سمكة ضخمة زرقاء من النوع المعروف بالعدّاء ، وأخرى صفراء من النوع المعروف بسمك الكراكي . وكان قد استعملها من قبل ، ولكنهما كانتا ما تزالان في حال حسنة جداً . وأياً ما كان ، فالسردين الممتاز كان جديراً بأن يهبهما عبيراً وجاذبية . وكان كل من الخيوط في مثل ثخانة قلم رصاصي كبير ، وكان معقوداً حول عود أخضر ليّن ، فما إن يُجذب الطعم أو يمسّ حتى يغوص العود في الماء . وكان الشيخ يحتفظ بلفيفتين من الخيوط طول كل منهما أربعون قامة ، ففي ميسوره أن يستعين بها اذا ما احتاج الى مزيد من الخيوط وتطلبت سمكة ما خيطاً يزيد طوله على ثلاثئة قامة .

وفي تلك اللحظة راقب الرجل وَضْعَ العيدان الثلاثة من فوق

جانب القارب ، وجذّف في تؤدة لكي يُبقي خيوط الصنارة عمودية مشدودة الى اعماقها السويَّة . كان الظلام قد توارى ، وكانت الشمس على وشك أن تشرق بين لحظة ولحظة .

ثم ان الشمس انبثقت من البحر رقيقةً مهزولةَ ، وغدا في ميسور الشيخ ان يرى القوارب الأخرى . خفيضة مع مستوى الماء غير نائية عن الشاطيء ، وقد انتشرت عبر التيار . ثم ازدادت الشمس اشراقاً . وانعكس وهجها على صفحة الماء . حتى اذا تقدمت في معارج السماء عكسَ البحر المستوي أشعتها اللاهبة الى عيني الشيخ فكادت تحرقها . وجذّف من غير أن ينظر اليها .وخفض بصره نحو الماء ، وراقب الخيوط الغائصة على نحو مباشر في ظلمات اليّم . لقد أمسك بها في وضع مستقيم ليس يقدر على مثله أي رجل آخر بحيث كان ثمة عند كل مستوى من مستويات المحيط طعمٌ ينتظر ، حيثما أراد له أن ينتظر تماماً ، أيما سمكة يتفق أن تسبح هناك . أما الصيادون الآخرون فكانوا يدعون التيار يتقاذف خيوطهم . وكثير ما تكون تلك الخيوط على عمق ستين قامة في حين يظنها الصيادون على عمق مائة .

أما أنا فأمسك بالخيوط في ضبط . كذلك قال الشيخ في ذات نفسه . كل ما في الأمر أني لم أعد محظوظاً على الاطلاق . ولكن من يدري ؟ لعلي اليوم ان أوفَّق الى شيء . ان كل يوم من الأيام يفتح للانسان صفحة جديدة . وان من الأفضل أن يكون المرء محظوظاً ، ولكني أوثر أن أكون دقيقاً . حتى اذا

أقبل الحظ بعد ذلك وجدني على أتم الاستعداد .

وازدادت الشمس ارتفاعاً بعد ساعتين من الزمان ، ولم يُنزل النظرُ الى الشرق أذى كبيراً بعينيه . كانت ثمة في مدى البصر ثلاثة قوارب ليس غير ، وكانت تتمهل خفيضة جداً ، قريبة جداًمن الشاطيء .

وقال في ذات نفسه : منذ صباي الأول والشمس المبكرة تؤذي عينيّ . ومع ذلك فهما ما تزالان صالحتين . وعند المساء ، أستطيع أن أنظر في وجهها – هي الشمس – من غير أن تصاب عيناي بالسفعة . أما في الصباح فالنظر الى الشمس يورثني ألماً شديداً .

وفي تلك اللحظة بالذات بَصُرَ بنسر بحري ذي جناحين طويلين سوداوين يحوّم أمامه في السماء . وما هي إلا لحظة حتى أسفّ النسر على نحو خاطف ، مائلاً على جناحيه المنحرفين إلى الوراء ، ثم عاود التحويم من جديد .

وقال الشيخ في صوت عال :

– «لقد أنهى مباحثه . لقد اكتشف شيئًا .»

وجذّف في بطء وفي اطراد إلى حيث كان الطائر يحوّم . ولم يصطنع الشيخ السرعة ، وكان حريصاً أبداً على أن يُبقي خطوط صنارته مستقيمة متوترة . ولكنه سبق التيار بعض الشيء بحيث ظل يصطاد في دقة وضبط ، وإن يكن اصطياده ذاك أسرع مما كان جديراً به أن يكون لو لم يحاول أن يلحق بالطائر .

وحلّق الطائر في الفضاء ، ثم أنشأ يحوّم وجناحاه جامدان لا حراكَ بهما . وفجأة انقضّ من حالق . وبصُر الشيخ بسمكات طائرة تنبثق من الماء وتُقلع في يأس فوق سطح البحر .

وقال الرجل العجوز في صوت عال :

«دلافين ! دلافين ضخمة !»

وسحب المجذافين من محوريها ، وأخرج صنارة صغيرة من تحت مقدّم القارب . كانت لها قاعدة معدنية وشصّ متوسط الحجم .وعلّق بالشص طعماً من السردين . وألقاه من جانب ، ثم شدّ الخيط إلى حلقه في مؤخر القارب . ثم طعّم صنارةً اخرى وتركها تتثنى في ظل القيدوم وعاود التجذيف ومراقبة الطائر الاسود الطويل الجناحين . وكان قد أسفّ ، الآن ، حتى لكاد يلامس سطح الماء .

وفجأة انحرف الطائر منقضّاً من جديد على السمكات الطائرة ، ثم رفرف بجناحيه في جنون ، ولكن على غير طائل . وكان في ميسور الشيخ ان يرى الانتفاخ الطفيف الذي أحدثته الدلافين الكبيرة . على وجه الماء ، فيما هي تطارد الاسماك الفارّة . وكانت الدلافين تشقّ طريقها تحت الماء ، في سرعة بالغة ، متعقبة تلك الاسماك ، رجاة ان تكون لها بالمرصاد حين تعاود الهبوط . وقال الشيخ في ذات نفسه : إنها جمهرة ضخمة من الدلافين . وإنها لمنتشرة في كل مكان . وليس للاسماك الطائرة كبير حظّ في النجاة . والطائر نفسه لن ينال من ذلك

كله شيئًا . فالاسماك الطائرة أضخم من أن يقدر عليها . وهي تنطلق في سرعة خاطفة .

وراقب الاسماك الطائرة وهي تنبجس من الماء الكرّة تلو الكرّة ، وجهود الطائر الضائعة من أجل الفوز باحداها . وقال في ذات نفسه : لقد أفلتت هذه الجمهرة مني . إنها بعيدة جدا ، وسريعة جداً . ولكن من يدري ، فلعلي أن أفوز بواحدة منها تائهة ، ولعل سمكتي الكبيرة آن تكون غير بعيدة عنها . إن سمكتي الكبيرة يجب أن تكون في مكان ما .

وفوق البرّ نهدت السحائب وكأنها الجبال . ولم يبق من الشاطيء غير خط طويل أخضر تنهض خلفه الكثبان الزرقاء الرمادية . كانت المياه الزرقاء داكنة ، الآن – داكنة إلى حدّ يكاد يجعلها بنفسجية ـ وحين خفض الشيخ بصره نحوها رأى طُفاوة البحر الحمراء في المياه الداكنة ، والضوء العجيب الذي ارسلته الشمس آنئذ . وراقب خيوطه فألفاها تنحدر في اللجّة على نحو مستقيم حتى تغيب في الاعماق . وغمرته السعادة لرؤية طفاوة البحر تلك لأنها كانت تعني وجود السمك في وفرة . وكانت الشمس مرتفعة جداً ، وكانت الاضواء العجيبة التي أحدثها انعكاسها على صفحة الماء تؤذن بأن الجوّ سوف يكون جيداً ، وكذلك أفادت أشكال السحاب المخيمة على البرّ . ولكن الطير كان قد احتجب عن البصر ، أو كاد ، وما عاد يبدو فوق سطح الماء شيء باستثناء باقات من عشب سارغاس الاصفر الناصل اللون ،

ومثانة ارجوانية ، هلامية قُزحيّة لرئة بحر كانت تطفو بحذاء القارب . لقد انقلبت على جنبيها ، ثم قوّمت وضعها . وطفت مبتهجة مثل فُقّاعة الصابون ، وأذنابها الأرجوانية القاتلة البالغ طولها نحواً من متر تنسحب وراءها في الماء .

وقال الشيخ :

-«آغو مالا agua mala . إذهبي أيتها العاهرة !»

ومن غير أن يترك مجذافيه انحنى قليلاً إلى أمام وحدّق في الماء ، فرأى السمكات الدقاق المصبّغة بلون الاذناب المنسحبة ، والسابحة بين تلك الاذناب في الظل الصغير الذي بسطته الفُقّاعة الطافية . كانت لها مناعة تقيها سُمّ رئات البحر ، ولكن البشر لا يتمتعون بمثل تلك المناعة . فما ان تعلق بعض أذنابها بخيط الصنارة وتمس بلزاجتها ولونها الأرجواني يد الشيخ أو ذراعه ، فيما هو يتربص باحدى السمكات الدوائرَ ، حتى تتقفّع تلك اليد أو الذراع وتعلوها قروحٌ كالتي يثيرها اللبلاب السامّ ، أو السنديان السامّ . ولكن الأذى الذي تلحقه ال «آغوا مالا» خاطف مؤلم كضربة سوط .

وكانت الفقاقيع القزحية اللون فاتنة . ولكنها كانت أشدّ الكائنات البحرية مخادعة وغدراً ، وكان الشيخ يحب أن يرى سلاحف البحر الضخمة تلتهمها . وكانت السلاحف إذا ما بَصُرت بها انقضّت عليها من أمام ، مغمضةً عيونها لكي تنعم بالوقاية التامة ، ثم تلتهمها جسداً وأذناباً . لقد أحب الشيخ مشهد

السلاحف وهي تفتك برئات البحر هذه ، وأحب أن يمشي فوقها ، على رمل الشاطيء ، بعد هدوء العاصفة ، وان يسمع فرقعتها حين يدوسها بأخمصي قدميه القاسيين كالقرون .

لقد أحب السلاحف الخضراء ، والسلاحف الصقرية المناقير ، بأناقتها وسرعتها وثمنها الغالي ! على حين كان يستشعر ازدراءً وديًا لذلك الضرب من السلاحف الضخمة الحمقاء «العديمة الرشاقة» الصفراء الدروع ،.السالكة في حبها مسالك غريبة . الملتهمة رئات البحر مبتهجةً مغمضة العيون .

ولم يكن متحجر الفؤاد مع السلاحف برغم انه انصرف إلى صيدها سنوات وسنوات . كان يأسى لها جميعاً ، حتى تلك السلاحف الكبيرة «ذوات الظهور الشبيهة بالصناديق» والتي يبلغ طولها طول القارب ، وتزن طنا . إن معظم الناس لا يحملون في أفئدتهم ذرّة من الشفقة على السلاحف لأن قلب السلحفاة يواصل الخفقان بعد انقضاء بضع ساعات على نحرها . ولكن الرجل العجوز قال في ذات نفسه : إن لي أنا أيضاً مثل هذا الفؤاد ويداي وذراعاي مثل أيدي السلاحف وأذرعها . وإلى هذا فهو يأكل بيضها الابيض لكي يُضرع في جسده القوة . لقد فعل ذلك طوال شهر نوار ، حتى إذا أقبل شهرا ايلول وتشرين الاول كان في ميسوره أن يواجه السمكة الضخمة حقاً بعزمٍ حديد .

ليس هذا فحسب . بل لقد كان دأبه أن يشرب كل يوم مقداراً من زيت كبد القرش ، بالاناء المعدني الكبير المفضّل في

تلك السقيفة التي يضع فيها كثير من الصيادين عـدَدهم . فهنـاك كان ذلك الزيت مبذولاً لطالبيه من الصيـادين . وكان معظمهم يكره مذاقـه . ولكنـه لم يكن أسوأ من النهوض في مثل السـاعـة المبكرة التي ينهضون فيها صبـاحـاً . وإلى هـذا فقـد كان علاجـاً ممتازاً للزكام والنزلة الوافدة ، وكان ذا فائدة كبيرة للعين .

وهنـا رفـع الشيـخ بصره نحـو السماء فرأى الطـائر يحـوّم من جديد .

وقال في صوت عال :

– «لقد وجد سمكة» .

ولم ينبثـق من سطـح المـاء أيمـا سمكـة طـائرة ، ولم تنتشر السُمَيكات ههنـا وههنـاك . ولكن فيما كان الشيـخ يراقب ، بصُرَ بسمكـة تُنّ صغيرة تثب في الهـواء ثم تستـدير وتنقض غـائصـة في المـاء . وأومض التنّ لحينيـاً في وجـه الشمس ، وبعـد ان انقلب غائصاً في اليمّ برز من الماء ثانٍ وثالث وراحت جميعها تتواثب في كل ناحية . ماخضةً الماء ، قافزة قفزات طويلة خلف الأطعـام . كانت تطوّقها وتستاقها ذات اليمين وذات الشمال .

وقـال الشيخ في ذات نفسـه : إذا لم تنطلق في سرعـة بـالغـة فسـوف أقبض عليهـا . ثم راقب جمهرة الاسماك تلـك وهي تثير الزبـد على وجـه المـاء ، والطـائر يسفّ فُجـاءةً ويغـوص التماسـاً للسُمَيْكات التي عصف بهـا الـذعر فـأكرهت على أن تفـزع إلى السطح .

وقال الرجل العجوز :

– «هذا الطائر يُسعف كثيراً» .

وفي تلك اللحظة عينها ، توتر خيط الصنارة التي في مؤخر القارب ، تحت قدمه المطوّقة بعروة الخيط . فاطّرح مجذافيه : واستشعر ثقلَ جذبة التنّ الصغير المرتعشة ، فيما هو يمسك بالخيط في إحكام ، ويجذبه نحوه . وتعاظم ارتعاش التنّ ، وصار في ميسور الشيخ أن يرى في الماء ظهر السمكة الازرق المسودّ وجنبيها الذهبيين قبل ان يرفعها من فوق حافة القارب ويقذف بها إلى داخله . واستلقى التنّ في مؤخر المركب . تحت أشعة الشمس اللاهبة ، مكتنزاً قنبليّ الشكل . وفتح عينيه الضخمتين الغبيتين ، وراح يخبط قعر المركب بذيله النظيف الرشيق الحركة خبطاً خاطفاً مرتعشاً . لقد اختنق . وبدافع من الشفقة ضربه الشيخ على رأسه ، ورفسه بقدمه – وكان جسده ما يزال يرتعد – إلى مؤخرة القارب الظليلة .

وصاح الشيخ :

– «سمكة خُنَيزيرية . إنها جديرة بأن تصبح طُعماً جميلاً ، وان وزنها لا يقل عن عشرة أرطال .» .

ولم يذكر متى شرع يخاطب نفسه ، أول مرة ، بصوت عال ؟ كان في الايام الخالية يغني وهو منفرد ، ولقد غنى في موهن من الليل ، بعض الاحيان ، حين كان وحده يدير السكّان في مراكب صيد السمك أو قوارب صيد السلاحف . ولعله إنما شرع

يتكلم بصوت عال ، وهو متوحد ، عندما فارقه الغلام . ولكنه لا يذكر ذلك . ففي تلك الايام التي تعاون فيها هو والغلام على الصيد كان من عادتها ان لا يتكلما إلا إذا دعت الضرورة إلى الكلام . كانا يتحدثان في الليل ، أو حين تعوقها الرياح عن العمل . ففي البحر ليس من المستحسن أن يتكلم المرء من غير ما داع . ولقد كان الشيخ يؤمن دائما بهذه السنّة ويحترمها . أما الآن ، فقد افرغ أفكاره غير مرة في قالب مسموع إذ لم يكن ثمة أحدٌ قد يزعجه ذلك .

وقال في صوت عال :

– «لو سمعني الناس أتكلم بصوت مرتفع اذن لظنوا انني معتوه . ولكنْ ما دمت معتوه فلست أبالي بظنونهم . وعلى أية حال فيجب أن لا أنسى ان عند الاغنياء راديوات تتحدث اليهم في مراكبهم ، وتأتيهم بأنباء مباريات البيسبول .»

وقال في ذات نفسه : ليس هذا أوان التفكير بالبيسبول . انه اوان التفكير في شيء واحد ليس غير : الشيء الذي خُلقتُ من أجله . وقد يكون حول تلك الجمهرة احدى السمكات الكبيرة – كذلك فكّر الشيخ . أنا لم أصد إلا سمكة ضالة من ذلك السمك الخنيزيري المنطلق بحثاً عن الرزق . ولكن انطلاقه كان سريعاً ممعناً في البعد . ومن عجب ان كل ما يبرز على سطح الماء اليوم ، يعدو بسرعة البرق ويتجه نحو الشمال الشرقي . هل

للساعة علاقة بذلك ، أم أنها علامة من علامات الاحوال الجوية لا أعرفها ؟

ولم يعد في ميسوره أن يرى خط الساحل الاخضر . كل ما كان قادراً على رؤيته قُننُ الكثبان الزرق التي بدت بيضاء وكأن الثلج كان يكللها ، والسحب التي تراءت فوقها أشبه بجبال ثلجية عالية . كان البحر داكناً جداً ، وكان النور يشكّل على وجه الماء مواشير من الضياء . وذابت رُقَع الطُفاوة البالغة آلافا مؤلقةً تحت وهج الشمس التي انتهت إلى كبد السماء . وإذا بالشيخ لا يرى غير المواشير العميقة في المياه الزرقاء وغير خيوطه الغارقة مستقيمةً متوترةً في الاعماق . وقدّر ان عمق المحيط هناك يبلغ ميلاً واحداً .

وعاودت سمكات التنّ الهبوط إلى ما تحت الماء . وكان الصيادون يخلعون اسم التنّ على جميع تلك الضروب من السمك ، ولا يميزون كل طائفة منها بالعَلَم الذي تُعرف به إلا حين يمضون لبيعها أو لاستبدالها بالأطعام . وكانت أشعة الشمس قد غدت لاهبة ، ولقد استشعرها الشيخ على مؤخر عنقه ، واحس بالعرق يتحدر على ظهره وهو يجذّف .

وقال في ذات نفسه : في ميسوري ان ادع القارب يجري مع التيار ، وأنام بعد أن الفّ طرف الحبل حول إبهام قدمي لكي أفيق في الوقت المناسب . ولكن هذا هو يومي الخامس والثمانون ، وينبغي ان أعمل في يقظة واحتراس .

وفي تلك اللحظة ذاتها ، وكان يراقب خيوطه ، رأى أحد العيدان الخضر الناتئة التي تقوم مقام العوّامات يغطس فجأة في الماء .

وقال :

- «اجل ، أجل ، ها انا ذا !»

وسحب المجذافين من غير ان يبدعها يسبان القارب . وانحنى إلى الامام ملتمسا الخيط فأمسكه في رفق بين الابهام والسبابة من يده اليمنى . فلم يستشعر فيه توتراً ولم يجد له ثقلاً . وأطبق يده على الخيط في غير إحكام . وما هي إلا برهة حتى أحسّ بجذب متردد ليس بالصلب ولا بالثقيل ؛ فعرف أي شيء كان وراء ذلك على وجه الضبط : فعلى عمق كان سَيْف يأكل السردين الذي يغطي رأس الصنارة وساقها حيث اخترق الشصّ المطرّق باليد رأس التنّ الصغير .

وأمسك الشيخ بالخيط في رقة . وبيده اليسرى ، وفي رفق ، حل العقدة التي تشده إلى العود . وهكذا صار في ميسوره أن يجعله ينساب بين أصابعه من غير أن تشعر السمكة بأي توتر .

وفكّر الشيخ : ما دمتُ في مثل هذا الشهر ، وعلى هذا البعد عن الساحل فليس من ريب في انها سمكة ضخمة جداً . ثم انشأ يخاطب السمكة قائلاً :

- «كلي هذه الاطعام . أيتها السمكة ، كليها ! أرجوك أن تأكليها ! لقد حفظتها طازجة من أجلك أنت ، على عمق ستمائة

قدم في ذلك الماء البارد وتحت جنح الظلام . هيا ، قومي بجولة أخرى في العتمة ، ثم ارجعي وكليها !»

واستشعر الجذب الرفيق ، ثم أحس بجذبة أعنف : لقد كان انتزاع رأس سردينة ما من الشصّ أكثر صعوبة على ما يظهر ولكن هذا كله لم يتكشّف عن شيء .

– «تعالي ! قومي بجولة أخرى ! ليس عليك إلا أن تستروحيها ! أليست شهية ؟ كلي من السردين ما تشائين الآن . وحين تنتهين فهناك سمك التنّ . إنه مكتنز اللحم ، بارد ، لذيذ . لا تكوني خجلة أيتها السمكة ! كليها !»

وانتظر ، والخيط بين ابهامه وسبابته . مراقباً هذا الخيط وسائر الخيوط في آن معاً لأن السمكة قد تسبح عاليا أو نازلا . ثم أحس بالجذبة الرفيقة نفسها ، كرة اخرى .

وصاح الرجل العجوز :

– «لقد اقبلتْ عليها . يا الهي ساعِدْها على التهامها !» ومع ذلك ، فلم تلتهمها . لقد ولت السمكة . ولم يستشعر شيئًا ما بعد ذلك .

– «من المستحيل أن تذهب . المسيح يعلم ان من المستحيل أن تذهب . إنها تقوم بجولة . لعلها ازدردت شصاً من قبل فهي لا تزال تذكر شيئًا من الالم الذي أورثها إياه» .

ثم انه أحسّ بالخيط يُجذب ، كرة أخرى ، جذباً رفيقاً . وأشرق وجهه بالبشر .

وقال :

- «لقد قامت بجولة ليس غير . ولسوف تلتهمهاالآن» .

وغمرته السعادة وهو يستشعر انجذاب الخيط الرفيق . ثم أحس بشيء قاس وثقيل إلى حد لا يصدق . ولم يكن ذلك غير السمكة . فأرخى الخيط ،وأرخى ، مستنجداً باحدى اللفيفتين الاحتياطيتين . وفيما الخيط يمعن في الغوص ، منسابا في رشاقة من بين أصابع الرجل العجوز ، كان لا يزال في استطاعته أن يُحسّ بالثقل العظيم على الرغم من ان ضغط إبهامه وسبابته كاد يكون غير ملحوظ .

وقال :

- «أيّ سمكة هذه ! لقد اعترضت الصنارة فمها الآن . وانها لتفرّ بها» .

وفكّر : وبعد ذلك سوف تستدير . سوف تبتلعها . ولم يقل ذلك ، لأنه كان يعلم ان المرء إذا عبر عن فرحه باقتراب النصر فقد لا يرى وجه النصر أبداً . لقد أدرك أي ضخامة كانت لتلك السمكة . وتمثلها سابحة في الظلمات والتنّ معترض في حلقها . وفي تلك اللحظة أحس بالسمكة تكف عن الحركة ، ولكن الثقل ما يزال هناك . ثم تعاظم الثقل ، فأملى جزءًا إضافياً من الخيط وأحكم ضغط سبابته وإبهامه لحظة . فازداد الثقل تعاظما ، وانشأ يغور على نحو عمودي مستقيم .

وقال الشيخ :

– «لقد فازت بها . ويجب عليّ الآن أن أدعها تلتهمها ، وتلتهمها جيداً» ..

. . وترك الخيط ينساب من خلال أصابعه ، فيما انحنى إلى أمام باسطاً يده اليسرى ، وأوثق طرفي الخيطين الاحتياطيين بالعروة المعدّة لهذا الغرض في طرف خيط ثالث . وهكذا أمسى على أحسن إستعداد . صار عنده ثلاث لفائف من الخيوط الاحتياطية طول كل منها اربعون قامة ، إلى جانب اللفيفة التي كان يستعملها .

وقال مخاطباً السمكة :

– «هيا ، كلي قطعة صغيرة أخرى . كليها جيداً !»

. وفي ذات نفسه قال : كليها حتّى تغيب الصنارة في قلبك وتقتلك . تعالي في سهولة ويسر ودعيني أطعنك بالحربون . حسن جداً . هل أنت مستعدة ؟ هل جلست إلى المائدة منذ وقت طويل ؟ .

– «والآن ؟» قال ذلك بصوت عال ، جاذباً بكلتا يديه جذباً شديداً . وكسب مقداراً من الخيط طوله ياردة واحدة ، ثم جذب وجذب ، متمايلاً ذات اليمين وذات الشمال . بأقصى ما يستطيع من قوة ، دائراً حول نفسه ، مستعيناً بثقل جسده كله .

ولم يثمر ذلك الجهد شيئاً . لقد ابتعدت السمكة في تؤدة ، وعجز الشيخ عن ان يرفعها إنشاً واحداً . كان حبله متيناً معداً

للسمكات الثقـال . ولقـد شـده إلى ظهره حتى تـوتر وأخـذت حبّات الماء تتواثب من حولـه ، ثم ان الحبل شرع يطلق فحيحاً بطيئًا في الماء . ولم يفلته الشيخ ، مستنداً إلى مقعـد التجـذيف ، منحنياً إلى الوراء لكي يكون أقـدر على مقـاومـة القوة الجـاذبـة . وبدأ القارب ينحرف شيئًا فشيئًا نحو الشمال الغربي .

وانطلقت السمكـة على نحو موصول ، وانطلق هـو معهـا ، في بطء ، فوق المياه الهـادئـة . كانت الاطعـام الايخرى مـا تزال في أعماق المياه ، ولكن لم يكن ثمة ما يمكن عمله .

وقال الشيخ في صوت مرتفع :

– «ليت الغلام كان معي . إن سمكة تجرّني ، وأنا منها بمثابة وتد الجز . ولقد كان في استطاعتي أن أشدّ الخيط شـداً أقوى ، ولكني أخاف ان تقطعـه السمكـة ، إن فعَلْتُ . يجب أن أتشبث بهـا مـا استطعت ، وأن أملي لها حين تكون في حـاجـة إلى ذلـك . واني أشكر الله على ان السمكـة تمضي إلى أمـام بـدلاً من أن تهبـط إلى أدنى» .

ما الذي سأعمله إذا مـا وطنت النفس على الهبوط إلى أدنى ؟ لست أدري . ما الـذي سـأعملـه إذا مـا غـاصت وقضت نحبهـا ؟ لست أدري . كل ما أدريه هو اني سوف أصنع شيئًا . ان هنـاك أشياء كثيرة في ميسوري أن اصنعها .

وتشبث بـالخيـط فوق ظهره وراقب انحرافه في المـاء ، بينمـا كان القارب يتجه نحو الشمال الغربي في اطّراد .

وقال بينه وبين نفسه : إن ذلك سوف يقتلها . إنها لا تستطيع أن تفعل ذلك إلى آخر الدهر . ولكنّ اربع ساعات تقضّت ولا يزال ذلك السيف الهائل يشق عباب الماء نحو عرض البحر من غير انقطاع جارًا القارب وراءه ، فيما الرجل العجوز يشد بالخيط ، متقوس الظهر ، في قوة وعزم .

وقال :

- «لقد أطعمتها الشص عند الظهر . ثم لم أر لها وجهاً حتى الآن» .

وكان قد ضغط قبعته المصنوعة من القشّ فوق رأسه ظغطاً شديداً ، قبل أن يوفق إلى إقحام الشص في فم السمكة ، فاذا هي تحز جبينه حزاً موجعاً . واستبدّ به الظمأ أيظاً . فركع محاذراً أن يقطع الخيط ، وانزلق نحو مقدم الزورق ما استطاع إلى ذلك سبيلاً ، وبسط احدى ذراعيه التماساً لزجاجة الماء . وفتح الزجاجة وشرب بضع جرعات . ثم استند إلى القيدوم ، ليقعد بعد على السارية المرفوعة من مكانها ، والتي كان الشراع قد لُفّ حولها ، وحاول ان لا يفكر - أن يتجلد ويصبر ليس غير .

ثم التفت إلى وراء ، فاذ هو غير قادر ، بعد ، على أن يرى شيئًا من اليابسة . وقال في ذات نفسه : لن يقدّم ذلك ولن يؤخر . في استطاعتي ان ارجع على أضواء هافانا ؛ ولن تغرب الشمس قبل ساعتين اثنتين ، ولعل السمكة ان ترتفع خلال هذه الفترة . وإذا لم ترتفع فقد تفعل ذلك مع القمر . وإذا لم يتم

ذلك فلعله ان يتم بزوغ الشمس ، أنا لا استشعر أي مغص ، واني لأحس بفيض من القوة . إنها هي التي ابتلعت الشص ، لا أنا . ولكن ينبغي ان تكون هائلة جداً ، هذه السمكة ، حتى تشدّني على هذا النحو . لا شك في أنها تعضّ على المعدن بأسنانها . لشد ما أتمنى لو أستطيع أن أراها ، لحظة واحدة ليس غير ، لكي أعرف أيّ خصم أقارع . .

ولم يغير السيف لا مسلكه ولا اتجاهه طوال ذلك الليل - أو هذا على الاقل ما استطاع الشيخ أن ينتهي اليه من مراقبته مواقع النجوم . وأمسى الجو بارداً بعد أن غربت الشمس ، وجف عرق الرجل العجوز على ظهره وذراعيه وقدميه الهرمتين . وكان قد رفع ، خلال النهار ، ذلك الكيس الذي يغطي صندوق الاطعام ونشره تحت أشعة الشمس كي يجف . حتى إذا غابت الشمس طوق به عنقه فتدلى جزء منه فوق ظهره . وفي احتراس أمرّ ذلك الجزء من تحت الحبل الذي كان يغترس ، الآن ، منكبيه . وكان في ذلك ما زوّده بضرب من الوسادة خفف من وطأة الحبل على جسده . ليس هذا فحسب . بل لقد وفق إلى ان يستند بصدره إلى مقدم القارب فيجد في ذلك بعض الراحة . والحق ان وضعه ذاك انتهى إلى أن يكون أقل إيلاماً ليس غير . ولكنه اعتدّه ، بالقياس إلى وضعه السابق ، مريحاً أو يكاد . .

وقال في ذات نفسه : لا حيلة لي فيها ، ولا حيلة لها فيّ . ما دامت تواصل خطتها هذه ، على الاقل .

ووقف لحظة وبالَ من فوق جانب الزورق ، وتطلّع إلى النجوم كي يتحقق من الوجهة التي يتخذها . ومن أعلى كتفيه حتى صفحة الماء بدا الخيط أشبه ما يكون بخيط ذي توهج فوسفوري . كان سيرهما قد أمسى أبطأ من ذي قبل ، ولم يكن الوهج المنبعث من هافانا قوياً شأنه في ما مضى ، فاستنتج الشيخ من ذلك ان التيار يحملها في اتجاه الشرق . وقال في ذات نفسه : إذا فقدتُ أنوار هافانا فمعنى ذلك اننا نمعن في الاتجاه نحو الشرق . لأنه لو واصلت السمكة سيرها على نحو مستقيم اذن لقُدّر لي أن ارى الاضواء بضع ساعات أخرى . ليت شعري عمّ أسفرت مباريات البيسبول الكبرى اليوم ؟ لا ريب في ان من الرائع ان يتمكن الانسان من متابعة تلك المباريات بالراديو فيما هو منهمك في الصيد ! ثم أضاف مخاطباً نفسه : فكّرْ فيها دائماً . فكّرْ في ما أنت بسبيله . يجب ان لا ترتكب حماقة ما .

وبعدئذ قال في صوت مرتفع :

– «لَشدّ ما أتمنى لو كان الغلام معي . إذن لمدّ إليّ يد المساعدة . واذن لشاهد هذا !»

وفكّر : إن أحداً لا يجوز أن يواجه البحر وحيداً في مثل سني هذه . ولكن لم يكن من ذلك بدّ . يجب أن آكل التنّ قبل أن يفسد . إن هذا يحفظ عليّ قوتي . واذكر ، مهما تكن غير جائع ، ان عليك ان تأكل ذلك التنّ في الصباح ، أذكرْ ذلك !

وفي موهن من الليل تقدّم خنزيران من خنازير البحر نحو

القارب ، وكان في ميسوره ان يسمع وثبهما ونخيرهما . وكان في ميسوره أن يميز لهاث الذكر الغليظَ من تنهد الانثى الرفيق .

وقال الشيخ :

- «خنزيران رائعان . انهما يلعبان ويمزحان ويحب بعضهما بعضاً . وان بيننا وبينهما رباطاً من الأخوّة كالذي بيننا وبين السمكات الطائرة» .

ثم شرع يأسى للسمكة الكبيرة التي أوقعها في شركه . وقال في ذات نفسه : إنها فاتنة عجيبة ، وليس يدري أحدٌ مبلغها من العمر . أنا لم أرَ في حياتي كلها سمكة في مثل قوتها أو في مثل مسالكها الغريبة . لعلها من الحكمة والتعقل بحيث تحجم عن الوثوب . وفي استطاعتها ان تهلكني لو وثبت أو اندفعت اندفاعة ضاربة . ولكنْ من يدري ؟ لعلها وقعت في الشرك مرات عديدة من قبل فهي تدرك ان هذه الطريقة هي التي يتعين عليها ان تصطنعها في القتال . إنها لا تستطيع أن تعرف ان خصمها الذي تواجهه رجل واحد ليس غير . وانه رجل هرم عالي السنّ . ولكن أي سمكة هائلة هي : وأي ثمن سوف تباع به في السوق شرط ان يكون لحمها رقيقاً بعض الشيء ! لقد تناولت الطعم كأنها ذكر ، وهي تشد كأنها ذكر ، وليس ينطوي نضالها على شيء من الذعر . ألا ليت شعري ، هل في رأسها خطة ما ، أم أنها مجرد يائسة مثلي أنا ؟

وذكر كيف ألقم الطعمَ ، ذات مرة ، أحدَ سيفين اثنين .

إن السمكة الذكر تدع السمكة الانثى تغتذى قبلها دائماً . فما كان من السمكة التي نشب الشصّ في حلقها – السمكة الانثى – إلا أن قاتلت قتالاً ضارياً مذعوراً يائساً ما لبث أن انهك قواها . وطوال تلك الفترة اقامت السمكة الذكر الى جانبها ، عابرة الخيط ، محوّمة معها عند سطح الماء . وانما كان تحويمها قريباً الى حد خشي الشيخ معه ان تقطع الخيط بذنبها الحادّ مثل المنجل وفي مثل حجمه وشكله تقريباً . حتى اذا جذب الشيخ الانثى بمحجنه وأهوى عليها بالهراوة ، متشبّثاً بمنقارها الذي كان طويلاً كالرمح خشناً مثل وزق الزجاج ، ضارباً اياها على أمّ رأسها الى أن استحال لونها الى لون يكاد يشبه لون القصدير الذي تُطلى به ظهور المرايا ، ثم رفعها هو والغلام الى القارب – حتى اذا تمّ ذلك كله أقامت السمكة الذكر الى جانب القارب لم تفارقه . وبعد ذلك ، فيما كان الرجل العجوز يحرّر الخيوط ويُعدّ الحربون ، وثبت السمكة الذكر عالياً في الهواء ، غير بعيد عن القارب ، لترى أين كانت انثاها ثم غاصت في أعماق الماء ، وقد نشرت جناحيها المصبّغين بلون أزرق فاتح وبكلمة اخرى زعانفها الصدرية – وبدت جميع خطوط جلدها العريضة ذات اللون البنفسجي الزاهي . ما كان أجملها ! وما كان أخلصها وأوفاها ! إن الشيخ لم ينسَ ذلك قط .

وقال الشيخ في ما بينه وبين نفسه : هذه أفجع قصة وقعت لي مع أسياف البحر . ولقد رانَ الحزن على الغلام ايضاً فالتمسنا

من السمكة القتيل العفوَ والمغفرة ونحرناها في الحال .

- «ليت الغلام كان معي !» قال ذلك في صوت عال واستقر على ألواح مقدّم القارب المستديرة ، وأحس من خلال الخيط المشدود الى كتفيه ، بقوة السمكة الضخمة تقوده في غير ما انقطاع الى حيث اختارت .

وفكّر الشيخ : لقد غدرتُ بها غدراً ، ولولا حبائلي لما أكرِهَتْ على أن تختار . وكانت قد آثرت البقاء في اعماق المياه القاتمة بعيداً عن جميع الأشواك والحبائل وضروب الغدر . ثم جئت أنا واخترت ان أنطلق الى هنا لكي أبحث عنها بعيداً عن جميع الناس ، في العالم . وها نحن الآن ، أنا وهي ، متّحدان ، متحدان منذ الظهر . وليس ثمة أحد يمدّ إليّ أو اليهما ، يد العون .

وقال في ذات نفسه : لعله ما كان ينبغي أن اكون صياداً ، ولكنْ ذلك هو الشيء الذي خُلقتُ من أجله . يجب ان لا أنسى ، بحال من الاحوال ، ان آكل سمكة التنّ حين يرتفع الضحى .

ومع الفجر أمسك شيء ما بأحد الاطعام التي كانت وراءه . وانقصت العود الأخضر ، وشرع الخيط يندفع فوق حافة ظهر القارب . وفي غمرة الظلام استلّ الشيخ مديته من غمدها ، وانحنى الى الوراء ، ملقياً ثقل السمكة بكاملها على كتفِه اليسرى ، وقطع الخيط على خشب الحافة ، ثم انه قطع الخيط الآخر

الأقرب اليه ، ووصل – في غمرة الظلام ايضاً – ما بين طرفي اللفيفتين الاحتياطيتين . لقد عمل في كثير من البراعة بيد واحدة ، واطئًا بقدمه على اللفيفتين تثبيتاً لهما ، فيما كان يُحكم عَقْد الخيطين . وهكذا تمّتْ له ست لفائف من الخيوط الاضافية . اثنتان من كل الخيطين الرئيسيين اللذين بترهما : واثنتان من الخيط الذي وقعت سمكته في شركة . وكانت كلها مترابطة .

وقال في ما بينه وبين نفسه : حين يرتفع النهار سوف أنقلب الى الخيط البالغ طوله أربعين قامة وأبتره هو أيضاً وأشدّ الخيوط الاضافية الى غيرها . وبذلك أخسر مائتي قامة من حبال الزوارق القطلونية الجيدة ، عدا الشصوص وقواعد الصنانير . ولكن هذه كلها يمكن تعويضها ، اما سمكتي الكبيرة فمن ذا الذي يعوّضني منها اذا ما ألقمت الشص سمكة اخرى فقطَعَتْ ما بيني وبينها ؟ أنا لا أدري ما نوع هذه السمكة التي التهمت الطعم في هذه اللحظة : أهي سيف ، أم عريض المتقار ، أم قرش ؟ أنا لم أسحبها قطّ حتى أعرف . وينبغي أن أتخلص منها في أسرع وقت مستطاع .

ثم قال بصوت عالٍ :

– «ليت الغلام كان معي !»

وفكّرَ : ولكن الغلام ليس معك . ليس معك غير جلدك الهرم ، ومن الخير لك ان ترتد الى خيطك الأخير ، الآن ، سواءٌ

أكانت الظلمة غامرةً الكون أم لم تكن ، وتقطعه وتضيف خيطَيْ الاحتياط الى سائر الخيوط .

وكذلك فعل . كان عملاً عسيراً في الظلام ، وفيما هو منصرف الى العمل وثبت السمكة وثبة طرحته على وجهه أرضاً . وغادرت تحت عينيه جرحاً . وسال الدم على خده بعض الشيء .. ولكنه ما لبث أن تخثر وجفّ قبل أن ينتهي الى ذقنه ، فاتخذ الشيخ سبيله عائداً الى مقدّم القارب واستند الى خشبه . وعدّل وضع الكيس ، وفي عناية بالغة أزاح الخيط الى ناحية جديدة من كتفيه . وإذ اتخذ من منكبيه شبه آلة رافعة ، راح يقدّر – في دقة – قوة السمكة . ليس هذا فحسب ، بل لقد صار في ميسوره أن يُسبل يده في الماء لتتمّ له ، بذلك ، فكرة عن سرعة القارب .

ليت شعري لماذا وثبتْ هذه الوثبة ؟ ينبغي أن يكون الشص المعدني قد انزلق فوق ظهرها الشبيه بالجبل . وليس من ريب في ان ظهرها لا يمكن ان يؤلمها بقدر ما يؤلمني ظهري . ولكنها لا تستطيع أن تستاق هذا القارب الى الأبد ، مهما كانت ضخمة . وعلى أية حال فقد تخلصت الآن من كل ما يعوقني . وان عندي احتياطياً كبيراً من الخيوط . وهل كنت أطمع في شيء أكثر من ذلك ؟

وفي وداعة قال بصوت عال :

– «أيتها السمكة ، سوف أبقى معكِ حتى تحضرني المنية !»

وهي أيضاً سوف تبقى معي في ما أظن ، كذلك فكّر الشيخ ، وأنشأ ينتظر ارتفاع الضحى . كان الجو بارداً الآن ، قبيل الفجر ، فالتصق الشيخ بالخشب التماساً للدفء . وقال بينه وبين نفسه : سوف أبقى ما بقيتْ هي . ومع مولد الضوء بَصُرَ بخيطه ممتداً في انحراف نحو أعماق البحر . وتقدّم القارب في اطراد . حتى اذا ما ذر قرن الشمس أصابت أشعتها منكب الشيخ الأيمن .

وقال :

– «انها تتجه نحو الشمال» .

وفكّر : كان خليقاً بالتيار أن يدفع بنا الى بعيد في اتجاه الشرق . ولشد ما اتمنى لو انحرفت السمكة مع التيار . فمثل ذلك يؤذن بأن التعب قد شرع يتطرق اليها : حتى اذا تقدمت الشمس في معارج السماء لم يبدُ على السمكة أيما امارة من امارات التعب . ولكن كان ثمة ظاهرة واحدة مشجعة : فقد كان انحراف الخيط يؤذن بأنها كانت تسبح على عمق أقل من ذي قبل . ولم يكن ذلك ليعني ، ضرورةً ، انها سوف تثب . ولكنها قد تفعل .

وقال الرجل العجوز :

– «دعها تقفز يا رب ! إن عندي مقداراً من الخيوط لمواجهتها» .

وفكّر في ما بينه وبين نفسه : لعلي اذا جذبت الخيط جذباً

اشد قليلاً آذاها ذلـك فوثبت . والآن ، وقـد طلع النهـار ، فقـد صـار من الخير أن تثب كي تمتلىء الجيـوب المرصـوفـة على طـول عمودها الفقري بالهواء ، وعندئذ يتعذر عليها الغوص الى الاعمـاق والمت فيها .

وحـاول أن يشـدّ الخيـط بعض الشيء ، ولكنـه كان قـد انتهى ، بعد ان التهمت السمكة شصّه ، الى حـال من التوتر تكاد تبلـغ نقطـة الانقصـاف . حتى اذا انحنى الى الـوراء لكي يجـذبـه اصطدم بمقاومـة افهمتـه ان من المتعـذر عليـه تقصير الخيـط بعـد الآن . وفكّر قـائلاً : ينبغي أن لا أشـدّه على الاطـلاق . ان كل شدّه توسع الشق الـذي احـدثتـه الصنـارة ، فما ان تثب السمكـة حتى تتحر منهـا . وعلى أيـة حـال ، فـإن الشمس تمـدني بنشـاط جديد ، وللمرة الأولى لا أجد الرغبة في النظر اليها .

وكانت اعشاب صفراء قد علقت بالخيـط ، ولكن الشيخ رأى في ذلك حملاً جديداً يتعين على السمكة أن تقطره . وسعدَ بهذا . لقـد كانت اعشـابَ الخليـج الصفراء التي اطلقت ذلـك الضـوء الفوسفوري كله في ساعات الليل .

ووجه الخطاب الى السمكة :

– «ايتهـا السمكـة ! أنـا احبـكِ وأكنّ لـكِ اعظم الاحترام ولكني سوف اصرعكِ قبل ان ينقضي النهار !»

وفكر بينه وبين نفسه : فلْنرجُ ذلك .

وتقدم نحو القارب طائر صغير مقبل من ناحية الشمال . كان

طائرا من تلك الطيور المغردة الحمراء الذنب ، وكان ينطلق مسفاً فوق سطح الماء . ولقد كان في ميسور الشيخ ان يلاحظ انه متعب جداً .

وانتهى الطائر الصغير الى مؤخر القارب ، واستراح هناك . ثم انشأ يحوم حول رأس الشيخ ليستقر فوق الخيط حيث نعم بقسط اكبر من الراحة .

وسأل الشيخ الطائر :

– «ما عمرك ؟ هل هذه أول رحلة تقوم بها ؟»

ونظر الطائر اليه وهو يتكلم . كان من التعب بمحل جعله يحجم حتى عن التأمل في الخيط ودرسه . ولقد ترنح عليه فيما كانت قدماه الدقيقتان تتشبثان به .

وقال الشيخ :

– «انه مكين . انه مكين اكثر مما يجب . وعلى كل حال ، فليس ينبغي ان تكون متعباً الى هذا الحد بعد ليلة لا ريح فيها . ما الذي يدعو الى الفرار ؟»

وبينه وبين نفسه قال : إنها البزاة . البزاة التي تنطلق الى عرض البحر لكي تلقاه هناك . ولكنه لم يذكر شيئاً من ذلك على مسمع من الطائر الذي ما كان في طوقه ان يفهمه على أية حال ، والذي كان خليقاً به ان يتعلم أشياء كثيرة عن البزاة في وقت قريب .

وقال مخاطباً الطائر الصغير :

– «إنعم براحة سابغة ، أيها الطائر الصغير . ثم انطلق نحو اليابسة وانتهز فرصتك مثل أي رجل او طائر أو سمكة» .

وشجعه الكلام ، لأن ظهره كان قد تصلّب الليلة البارحة ، فهو يؤلمه ألماً شديداً .

وقال :

– «ابقَ في منزلي اذا شئت . أنا آسف لعدم تمكني من نشر الشراع ونقلك الى اليابسة على جناح النسيم الرفيق الذي يهب الآن . ولكن عندي ضيفاً عزيزاً !»

وفي تلك اللحظة انتفضت السمكة انتفاضة مفاجئة صرعت الشيخ عند مقدّم المركب . وكان خليقاً بها أنَ تقذف به إلى أعماق اليمّ لو لم يتشبث بجانب الزورق ويرخي الخيط بعض الشيء .

وكان العصفور قد طار حالما انتفضَ الخيط . ولم يوفَّق الشيخ الى أن يراه وهو يطير . لقد لمس ، في عناية ، بيده اليمنى ، ثم لاحظ ان يده ملوثة بالدم .

– «هذا يعني أن شيئًا ما قد جرحها» . قال ذلك بصوت مرتفع ، وجذب الخيط ليرى ما اذا كان في امكانه أن يقلب السمكة . ولكنه لم يكد يبلغ نقطة الانقصاف حتى كفَّ عن الجذب ، والتمس سناداً يقاوم به ضغط الخيط .

وقال :

– «وأخيراً شعرتِ بألم الضربة ، أيتها السمكة . وكذلك ، شهد الله ، شعرتُ أنا !»

وأجال طرفه في ما حوله بحثاً عن العصفور ، اذ كان يجد في رفقته عزاء وسلوى . ولكن العصفور كان قد مضى لسبيله .

وقال الرجل في ما بينه وبين نفسه : أنت لم تمكث طويلاً . ولكنك مخطىء لأن المكان الذي تقصد اليه أقسى وأصعب ، حتى تبلغ الشاطىء . كيف أجرتُ للسمكة أن تصرعني بتلك الجذبة المفاجئة ؟ لقد غدوت أبله من غير ريب ! أو لعلي كنت أنظر الى العصفور وأفكّرُ فيه . والآن ، ينبغي أن أعمل في يقظة ، وأن آكل التن حتى أحفظ عليّ قوّتي .

وقال في صوت مرتفع :

– «ليت الغلام كان معي ! وليتني جئت بشيء من الملح !»

وحوّل ثقل الحبل الى منكبه الأيسر ، وركع في احتراس ، وغسل يده في مياه المحيط وأبقاها مغمورة هناك مدة تزيد على الدقيقة ، مراقباً الدم وهو ينسحب على وجه البحر ، وحركة المياه المطرد حول يده فيما كان القارب يتابع طريقه .

وقال الشيخ :

– «لقد تباطأ كثيراً» . .

وكان يوّد لو يُبقي يده في المياه المالحة فترة أطول ، ولكنه خشي أن تجذبه السمكة أخرى مفاجئة . فنهض ، ملتمساً سناداً يقيم به توازنه ، ورفع يده في وجه الشمس . كانت حزّة الخيط هي التي جرحت لحمه . ولكن إلجرح كان في الجزء العامل من يده . ولقد عرف انه قد يحتاج الى يديه الاثنتين قبل أن يبلغ

هذا الصراع غايته . ومن هنا كانت إصابته بهذا الجرح حتى قبل بدء الصراع أمراً مزعجاً .

وقال حين جفت يده :

– «والآن يجب أن آكل التنّ الصغير . في استطاعتي أن أسحبه بالمحجن وأنعم بلحمه هنا ، في أمن» .

وانحنى الى أمام ، واستعان بالمحجن على سحب التنّ من تحت مؤخر القارب ، محترساً من أن يمسّ الخيوط الملتفّة . ثم انه نقل الخيط الى منكبه الأيسر كرة أخرى ، متكئًا على يده وذراعه الأيسر ، ونزع التنّ من رأس المحجن ، وأعاد المحجن الى مكانه . حتى اذا تم له ذلك وضع احدى ركبتيه على السمكة وانتزع قدداً طوليّة من لحم داكن ، من مؤخر الرأس حتى الذنب . كانت قدداً إسفينية الشكل وكان قد قطعها من العمود الفقري الى حافة البطن . وحين وُفّق الى انتزاع ست قدد ، نشرها على خشب القيدوم ، ومسح مديته بجانب من بنطلونه . ثم رفع هيكل التنّ من ذيله وألقاه في اليم .

– «لست أظن أن في استطاعتي أن آكل واحدة بكاملها» . قال ذلك وأمرّ سكينه عبر إحدى القدد . كان في استطاعته أن يستشعر ضغط الحبل الثقيل المطّرد . وتشنجت يده اليسرى . وألقى عليها نظرة اشمئزاز فيما كانت تتشبّث بالخيط تشبثاً شديداً .

– «أيّ نوع من اليد أنت ؟ تشنجي اذا شئت . اجعلي من نفسك مخلباً ، فلن يفيدكِ ذلك شيئًا !»

وفكّر قائلاً : هيا ، ونظر الى الماء عند منحرف الخيط ، كُلْ لحم التنّ هذا ، الآن ، فانه جدير بأن يقوي يدك . إن الذنب ليس ذنب اليد ، بعد ان قضيت هذا الوقت كله مع السمكة . ولكنك قد تبقى معها الى آخر الدهر . كُلِ التنّ الآن .

وتناول قطعة حشا بها فمه ، وأنشأ يضغها في أناة . إنها لم تكن رديئة .

وقال في ذات نفسه : إمضغها جيداً وإنتزع جميع عصاراتها . ولا شك في أنك لو اكلتها مع شيء من عصير الليمون الحامض أو عصير البرتقال ، أو مع شيء من عصير الملح ، لكانت أشهى .

وسأل يده المتشنجة التي انتهت الى أن تصبح متصلبة مثل أيدي الموتى :

– «كيف حالكِ ، أيتها اليد ؟ سوف آكل مقداراً اضافياً من أجلكِ» .

وأكل الجزء الآخر من القدة التي كان قد قطعها نصفين . ومضغها في تؤدة ، ثم تفل الجلد .

– «كيف تشعرين الآن . أيتها اليد ؟ أم أن معرفة ذلك لم يحن بعد ؟»

وتناول قطعة أخرى وحشا بها فمه .

وفكّر بينه وبين نفسه : إن هذا التنّ حافل بالدم . ولقد كنت محظوظاً حين اصطدته بدلاً من ان اصطاد أحد الدلافين .

فالدلفين حلو أكثر مما ينبغي . أما التنّ فأبعد ما يكون عن الحلاوة ، ولا تزال قوته كامنة فيه .

وأردف مخاطباً نفسه : وأياً ما كان فليس ثمة غير شيء أساسي واحد : هو أن آكل . وكم أتمنى لو كان عندي قليل من الملح . والشمس ؟ أتفسد ما بقي أم تجففه ؟ لست أدري . وإذن فمن الأفضل أن آكل ذلك كله على الرغم من أني غير جائع . إن السمكة هادئة ثابتة . سوف آكل ذلك كله . وعندئذ اصبح مستعداً لاستئناف العمل .

وقال :

- «إعتصمي بالصبر ، أيتها اليد ! إنما أكره نفسي على الأكل من أجلك !»

وبينه وبين نفسه قال : لشدّ ما أتمنى لو أستطيع أن أطعم السمكة . إنها أختي . ولكنْ يتعين عليّ أن أقتلها وان احتفظ بقوتي لكي أقدر على ذلك . وفي أناة ووعي ، أكل القدد الأسفينية الشكل كلها .

وتصدّر ، ماسحاً يده ببنطلونه .

وقال :

- «والآن ، في استطاعتكِ أن ترخي الحبل ، أيتها اليد ، وفي ميسوري أن أمسكه باليد اليمنى وحدها حتى تكفّي عن هذا الهراء !»

ووضع قدمه اليسرى على الحبل الثقيل الذي كانت اليد

اليسرى ممسكة به . واتخذ من جسده كله مُخلاً يخفّف به وطأة الحبل الذي أنقَضَ ظهره .

وقال :

– «يا إلهي ، ساعدني على طرد هذا التشنج . لأني لا أدري ما الذي ستفعله السمكة» .

وبينه وبين نفسه قال : ولكنها تبدو هادئة تتبّع خطتها المرسومة . وفكّر : ولكن ما خطتها ؟ وما هي خطتي ؟ إن عليّ أن أرتجل خطة تتفق مع خطتها ، لأنها هي التي تقود ما دامت على هذا العِظَم كله . ولو أنها قررت أن تثب إذن لقتلتها . ولكنها تؤثر البقاء في الأعماق ، الى الأبد . وإذن فينبغي أن أبقى معها في الأعماق ، إلى الأبد .

وحكّ يده المتشنجة ببنطلونه ، وحاول أن يليّن أصابعها . ولكنها أبت أن تنفتح . ومن يدري ، فلعلها أن تنفتح إذا تعرّضت لأشعة الشمس . لعلها ان تنفتح عندما تُهْضَم سمكة التنّ النيئة . ولكن اذا ما اضطررتُ الى استعمالها فعندئذ سأعمد الى فتحها ، مهما يكن الثمن . ولكني لا اريد أن أفتحها الآن عنوةً . أنا أوثر أن تنفتح هي بطوعها ، وان تستأنف الحركة والنشاط ساعة تشاء . وعلى أية حال ، فقد اسأتُ اليهنا كثيراً ، الليلةَ البارحة ، حين تعيّن عليّ ان إحل مختلف الخيوط ثم أشد بعضها الى بعض .

وأجال بصره في البحر واستشعر مدى الوحدة التي تكتنفه .

ولكنه ظلّ قادراً على أن يرى مواشير الضياء في الأعماق الظلمة ، والخيطَ مندفعاً الى أمام ، وتموجات الماء الساجي العجيبة . كانت ترتفع الآن الى أعلى للقاء الرياح التجارية . وتطلّع أمامه فرأى سرباً من البط البري يناطح السماء ، ثم يغيب ، ثم يبدو من جديد . وأدرك الشيخ أن المرءَ لا يمكن أن يكون وحيداً ، وحدةً كاملة ، في عرض البحرِ .

وفكّر في أولئك الذين يخشون أن يركبوا الزوارق وينطلقوا من الشاطىء الى أبعد من مدى النظر . وأدرك انهم على صواب في الاشهر التي تتقلب فيها الأحوال الجوية تقلباً مفاجئاً . ولكنهم اجتازوا هذا الموسم ، ودخلوا في شهور الأعاصير . وحين تخلو هذه الشهور من الأعاصير فلا ريب في انها أجمل ايام السنة على الاطلاق .

وحين تنذر الدنيا بأعصار ، يكون في مستطاعك دائماً ان تقرأ اماراته في السماء ، قبل بضعة أيام ، اذا كنت في اليمّ . انهم لا يرونه من على الشاطىء لأنهم لا يعرفون إلامَ ينبغي أن ينظروا – كذلك قال بينه وبين نفسه . ويجب أن لا ننسى ، الى هذا ، ان شكل السحب حين يُنظر اليها من اليابسة غير شكلها حين يُنظر اليها من البحر . ولكن ليس ثمة اعاصير مقبلة الآن .

وتطلع الى السماء فرأى الغيوم البيضاء المتلبدة على شكل طبقات متراكمة من «البوظة» الشهية ، ورأى عالياً فوقها ، ريش

الطحاريـر الـرقيقـة تنـاطـح سـمـاء ايـلـول العـاليـة .

وقال في صوت مرتفع :

– «نسيم عليل . هـذا الجو يـلائمني أكثر ممـا يـلائمـكِ ، أيتهـا السمكة !»

كانت يـده اليسرى لا تزال متشنجـة ، ولكنـه كان قـد شرع يحل عقدتها شيئًا بعد شيء .

وفكّر : أنا اكره التشنج . انه خدعة قذرة من خدع جسدك نفسه . والواقع ان اصابة المرء بـالاسهـال نتيجـة للتسمم البتوميني والتقيؤ الناشيء عنه لأمرٌ مخجل حقـاً أمـام النـاس . أمـا التشنج فقد كان ينظر اليه نظرتـه الى شيء أدهى من ذلـك وأمرّ ، شيء يُخجل نفس المرء وبخاصة حين يكون وحيداً .

وبينه وبين نفسه قال : لو كان هنا اذن لفرك يـدي وليّنهـا من السـاعـد . ولكن لا داعي للجـزع ، فـلا بـد أن تعـاودهـا الحياة .

وفجـأةً ، وحتى قبـل أن يرى التغيّر الـذي طرأ على انحراف الخيطِ في الماء ، أحسّ بظاهرة جـديـدة في ثِقلِ الحبل . فمـا كان منـه إلا أن انحنى على الخيـطِ صـافِعـاً فخـذه في قوة وعنف بيـده اليسرى المتشنجة ، وأنشأ يتأمل الخيط وهو يرتفع .

وصاح :

– «ها هو يصعد . هيّا ، أيتها اليد ! هيّا أرجوك !»

وارتفع الخيـط في تؤدة واطراد . ثم انفتح الاوقيـانـوس أمـام

القارب ، وانبثقت السمكة من الماء ، وكان انبثاقها متطاولاً وكأنه شيء لا نهاية لـه ، وكان المـاء يقطر من جنبـاتها جميعـاً . كانت تتـلألأ تحت أشعـة الشمس ، وكان رأسهـا وظهرهـا بنفسجيين داكنين ، على حين كانت الخطوط التي توشح جـانبيها عريضـة ذات لـون أزرق ليلكي . أمـا رمحهـا فكان طـويـلاً كمضرب البيسبول ، محدداً كالحسام . وانبثقت السمكـة بكاملها من المـاء ، ثم غـاصت من جـديـد بكتل مرونـة الغواص . ورأى الشيـخ الى ذيلها الضخم الشبيه بالمنجل يغيب في الماء ، وأخذ الخيـط يعـدو من جديد .

وقال الشيخ :

– «إنها أطول من الزورق بقدمين اثنين» .

كان الخيـط يكرّ في سرعـة، ولكن في اطراد . ولـك تكن السمكة مذعورة على الاطلاق . ويديه الاثنتين حـاول الشيخ أن يشدّ الحيط في قوة ، محاذراً دائماً أن يبلغ نقطة الانقصاف . لقـد أدرك أنه إن لم يعقْ حركة السمكة بضغط مطّرد فعنـدئـذ يصبح في ميسورها أن تمضي بالخيط كله وتقطعه .

وقـال في ذات نفسـه : إنهـا سمكـة هـائلة ، ويتعيّن عليّ أن أنتصر عليها . ينبغي أن أحـاول بينهـا وبين أن تكوّن فكرة عن قوتها ، وما الذي تستطيع أن تفعلـه اذا مـا انطلقت تعـدو . ولو كنتُ مكانهـا إذن لأقلعتُ ، في الحـال ، عن كل شيء ومضيتُ حتى ينقطع شيء ما . ولكن هذه الحيوانات ليست ، ولله الحمد ،

على مثل ذكائنا ، نحن الذين نفتك بها . على الرغم من أنها أكثر منا نبلاً وأكثر مقدرة .

وكان الشيخ قد رأى في حياته كثيراً من السمكات الكبار . لقد رأى كثيرات تزن كل منها اكثر من ألف رطل ، واصطاد اثنتين في مثل ذلك الحجم . ولكنه ما كان يعمل وحده آنذاك . أما اليوم فهو متوحد على ظهر هذا الزورق ، وقد احتجب الشاطىء عن ناظرية ، وشُدّ إلى أكبر سمكة قُدّر له أن يراها أو أن يسمع بمثلها عُمْرَهُ كله ، ولا تزال يده اليسرى مطبقة مثل براثن نسرٍ أنشبت في إحدى الطرائد .

وبينه وبين نفسه قال : ولكن التشنج سوف يزايلها آخر الأمر . لا ريب في أنها سوف تلين لتساعد يدي اليمنى . إن هناك ثلاثة أشياء يجب أن تظل متلازمة تلازم الأخوة : السمكة ويداي الاثنتان . أجل يتعيّن عليها أن تلين ... فليس جديراً باليد الوفية أن تصاب بالتشنج . وها هي ذي السمكة قد تباطأت كرةً أخرى وعادت الى سرعتها السوية .

وفكّر : اني لأتساءل لماذا وثبت ؟ لقد وثبت وكأنما تريد أن تريني مبلغ ضخامتها . وعلى أية حال فقد عرفتُ ضخامتها الآن ، ولشدّ ما أتمنى لو أستطيع أن أريها أي رجل أنا . ولكنها قد ترى ، عندئذ ، يدي المتشنجة . وأياً ما كان ، فمن الافضل ان أدعها تظن اني أكثر رجولةً مما أبدو ، وهكذا أصبح كما ظنّت حقاً . وتابع تفكيره : أتمنى لو كنت أنا السمكة . ان كل ما فيها

متفوق . أما أنا فليس عندي غير إرادتي وذكائي .

واستنـد إلى الخشب ، وتحمّـل عـذابـه في صبر . وسبحت السمكـة على نحـو مـوصـول ، وانسـاب القـارب وئيـداً عبر الميـاه الداكنة . وثـار البحر ، بعض الشيء ، تحت وطـأة الريح الهـابّـة من ناحية الشرق . وعند الظهر انطلقت يد الشيح المتشنجـة من عقالها .

- «هو ذا نبأ لا يسرّكِ ، ايتها السمكة !» قـال ذلـك وعـدّل وضع الخيط فوق الأكياس التي تغطي ظهره .

واستشعر شيئًا من الراحة ، ولكن الألم كان يُلحّ عليـه ، برغم انه لم يسلّم بوجود ذلك الألم على الاطلاق .

وقال :

- «أنا لست تقياً ، ولكني خليق بـأن أتلو «أبـانـا» و «السلام عليـكِ يـا مريم» إذا وفقت إلى اقتنـاص هـذه السمكـة . بـل اني لأقسم لأحجّنّ إلى مـزار العـذراء إذا مـا اصطـدتهـا . ذلـك نـذرٌ عليّ» .

وشرع يتلـو صلـواتـه على نحـو آلي . وفي بعض الفترات كان التعب يرهقه الى درجة تنسيه كلماتها . فهو يتلوها في سرعة لكي تنطلق ميكانيكياً . وبينه وبين نفسه قال: ان «السلام عليكِ يا مريم» أيسر من «أبانا» وأسهل .

- «السلام عليكِ يا مريم ، يـا ممتلئـةً نعمـةً . الربّ معـكِ ، مبـاركـةٌ أنتِ بين النسـاء ، ومبـاركـةٌ هي ثمرة بطنـكِ يسوع

المسيح . أيتها القديسة مريم ، يا أم الله ، صلي من أجلنا نحن الخاطئين . الآن ، وفي ساعة موتنا ، آمين !» ثم أضاف : «أيتها العذراء المباركة ، صلي من اجل موت هذه السمكة ، على الرغم من انها سمكة رائعة !»

حتى إذا أتم صلواته استشعر انه أنشط من ذي قبل . بيد أن الالم ظل على حدته تماما ، بل لعله انتهى إلى أن يكون أشد مضاضة . وانحنى على خشب القيدوم وأنشأ يحرّك اصابع يده اليسرى .

وكانت الشمس لاهبة الآن على الرغم من ان النسيم اخذ يهبّ في رفق .

وقال الشيخ :

– «من الافضل ان أجدد أطعام ذلك الخيط القصير الذي في مؤخر القارب . وإذا اعتزمت السمكة أن تمكث ليلة أخرى فسوف أكون مضطراً إلى ان آكل مرة ثانية . وإلى هذا فيجب أن لا أنسى ان زجاجة الماء لم يبق فيها غير ثمالة ضئيلة . ولست أظن أن في مستطاعي أن أفوز ههنا بشيء غير بعض الدلافين . ولكن إذا أكلت لحمه طازجاً جداً فقد لا يصعب عليّ أن أسغيه . وكم أتمنى لو ان سمكة طائرة حطّت في القارب هذه الليلة . ولكن ليس عندي أي ضوء حتى أجتذبها . إن السمك الطائر شهي جداً إذا أكل نيئًا . ولن أكون مضطراً إلى تقطيعه . يجب أن ادّخر كامل قوّتي الآن . يا إلهي ، أنا ما كنت أعلم أنها كبيرة إلى هذا الحد !»

ثم أردف :

- «ومع ذلك فسوف أصرعها ، بعظمتها كلها ، ومجدها كله !»

وفكّر : على الرغم من ان هذا ليس بعدل . ولكني اريد أن أريها أيّ شيء يستطيع أن يعمله الانسان وأي مشقّة يستطيع أن يحتمل .

وقال :

- «لقد قلت للغلام إني عجوز غريب . وها قد حانت الساعة التي يتعيّن أن أثبت فيها صدق قولي» .

لكأن إثباته ذلك ألف مرة من قبل لا يعني شيئاً بالنسبة اليه . وها هو ذا يقيم الدليل على صدق قالته كرةً أخرى . كانت كل مغامرة من مغامراته جديدة بالكلية ، وما كان ليفكّر يوماً بالماضي ، فيا هو منهمك في عمله .

وبينه وبين نفسه قال : ليتها تنام ، وعندئذ أستطيع أنا أن أنام وأرى الأسُود في الحلم . لمَ كانت الأسُود هي الشيء الرئيسي الذي بقي له ؟ وهنا قال لنفسه : لا تفكّر ، أيها الرجل العجوز . استرح الآن على الخشب» ولا تفكّر بشيء . إن السمكة تعمل ناشطة . فاعمل أنت أقل ما تستطيع .

وتقضّت الظهيرة ، والقارب لا يزال يتقدم في اناة واطراد . ولكن النسيم المشرقي أخذ يسهم ، الآن ، في دفع القارب ، وهكذا حُمل الشيخ ، في رفق ، على متن الأمواج . وغدا الألم

الذي أثاره الحبل في ظهره أخف وطأ وأدنى إلى الاحتمال .

وعند الاصيل عاد الخيط يرتفع كرةأخرى . ولكن السمكة واصلت مسيرها على عمق أقل بعض الشيء . وكانت الشمس تلقي أشعتها فوق كتف الشيخ وذراعه اليسرى وظهره ، ومن هنا استنتج ان السمكة قد اتجهت نحو الشمال الشرقي .

أما وقد رأى السمكة مرةً فقد صار في وسعه ان يتمثل السيف سابحاً في الماء بزعانفه الحمراء الداكنة ، المنشورة كالأجنحة ، وبذيله الافقي الضخم يشق حجاب الظلماء . وقال الشيخ بينه وبين نفسه : ليت شعري إلى أي مدى يستطيع ان يبصر في تلك الاعماق ؟ إن عينه هائلة ، وفي استطاعة القرش أن يرى سبيله في الظلام بعين أصفر بكثير . ولقد أتى عليّ حينٌ من الدهر منت ابصر خلاله جيداً في الظلام . لست أعني في الظلام المطلق . ولكن كما ترى الهرة تقريباً .

وكانت الشمس وتحريكه أصابع يده اليسرى تحريكاً موصولاً قد أذهبا عنها التشنج نهائياً . وهكذا صار في ميسوره أن يعهد اليها في نصيب من العمل أكبر . ثم انه رفع عضلات ظهره ليزيح الوِزر الذي أنقضه ، بعض الشيء .

وقال في صوت عال :

– «إذا كنت لمّا تتعبي بعد ، أيتها السمكة ، فلا بدّ ان تكوني عجيبة جداً !»

وكان هو قد استشعر انه متعب كثيراً . وكان يعلم ان الليل

قد أمسى قريباً ، فحاول ان يفكر في أشياء أخرى . لقد فكّر في مباريات البيسبول الكبرى ، وفي المباراة الجارية بين يانكيي نيويورك وأنمار ديترويت .

وقال في ذات نفسه : ها قد انقضى يوم ثانٍ لم اعرف فيه نتائج اللعب . ولكن يجب أن أكون قوي الايمان ، وان أكون جديراً بـ «دي ماغيو» العظيم الذي يعمل كل شيء على الوجه الاكمل برغم الالم الذي يورثه إياه نتوء العظم في عقبه . وسأل نفسه : ولكن ما بروز العظم ؟ نحن لم نُصبْ به . أممكن أن يكون مؤلماً كدخول شوكة ديك في عقب امرىء من الناس ؟ أنا لا أظن ان في طاقتي ان اصاب بذلك أو بفقدان احدى عيني أو كلتيهما ثم أواصل القتال كما تفعل الديكة المحاربة . ان الرجل ليس شيئاً كبيراً إذا قيس بالطيور الضخمة ، والحيوانات المفترس . ومع ذلك فلو كان لي ان اختار لما اخترت أن أكون غير هذا السيف السابح هناك في اعماق البحر المظلمة .

وقال في صوت مرتفع :

– «إلا إذا أقبلت الاقراش . لأنه إذا أقبلت الاقراش فعندئذ يرحمه ويرحمني الله !»

وفكّر : هل تحسب ان دي ماغيو العظيم يستطيع ان يمكث مع احدى السمكات الكبار طوال المدة التي سأمكثها مع هذا السيف ؟ أنا واثق من انه خليق بأن يمكث هذه المدة كلها وزيادة ما دام نضر العود قوياً . وإلى ذلك ، فقد كان أبوه

صياداً . ولكن هل سيؤلمه نتوء العظم في عقبه كثيراً ؟

وقال في صوت مرتفع :

– «لست أدري . أنا لم أصب بنتوء العظم قط» .

وفيما الشمس تجنح إلى الغروب تذكّر ، لكي يعزز ثقته بنفسه ، يوم لعب في إحدى حانات الدار البيضاء لعبة «اليد الحديدية» مع زنجي عظيم مثل «سيانفوغوس» كان أقوى رجال المرفأ وأشدّهم بأساً . وكانا قد سلخا يوماً وليلةً ، ومرفقاهما فوق خط رُسِمَ بالطباشير على الطاولة ، وساعداهما منتصبان ، ويداهما مشتبكتان في إحكام : وكان كل منهما يبذل غاية جهده لكي يلوي يد الآخر ويكرهها على أن تمسّ الطاولة . وراجت سوق المراهنة ، وطفق الناس يدخلون الغرفة ويغادرونها على ضوء مصابيح الكيروسين ، وكان هو قد رنا إلى ذراع الزنجي ، ويده ووجهه . وتناوب المحكمون على مراقبتهما ، مرة كل اربع ساعات ، بعد الساعات الثماني الأولى ، لكي يكون في ميسورهم أن ينالوا حظهم من النوم . وتفجّر الدم من تحت أظافر يده وأظافر يد الزنجي . ونظر كل منهما في عينيّ الآخر ، وإلى يديه وساعديه . وتدفق المتراهنون إلى الغرفة غادين رائحين ، وقعدوا على كراسي عالية ، مستندة إلى الجدران ، وانشأوا يراقبون اللعبة . وكانت الجدران مدهونة بلون أزرق زاهٍ ، وكانت خشبية ، وكانت المصابيح تلقي ظلالها عليها . كان ظل الزنجي هائلاً ، وكان يتمايل على الجدار كلما عبثت النسائم بضوء المصابيح .

وطوال الليل ، تأرجح النصر ذات اليمين وذات الشمال . وقدّم القوم شيئًا من خمر الـ «الروم» الى الزنجي ، وأشعلوا له السجائر . ثم ان الزنجي أفرغ ، بعد تناوله الشراب ، جهداً هائلاً فوفّق مرةً إلى ان يلوي يد الشيخ - الذي لم يكن شيخاً آنذاك ، ولكن سانتياغو البطل - El Campeon - نحواً من ثلاثة إنشات . بيد ان الشيخ ما لبث أن أعاد يده إلى الارتفاع عينه تماماً . وفي تلك اللحظة عمرت الثقة فؤاده بأنه لابدّ غالبٌ الزنجي ، وعند بزوغ الفجر ، ساعةَ أصرّ المتراهنون على أن يُعتبر الفريقان متساويين ، وهز المحكمون رؤوسهم ، أفرغ الشيخ كامل قواه ، فجأةً ، وأكره يد الزنجي على أن تنثني شيئًا بعد شيء مسّت الخشب آخر الأمر . لقد استهلت المباراة صباح يوم من أيام الاحد ، ثم لم تنتهِ إلاّ صباح يوم الاثنين . وكان كثير من المتراهنين قد طالبوا بأعلان التكافؤ لاضطرارهم إلى الذهاب إلى المرفأ حيث ينقلون أكياس السكّر أو إلى «شركة الفحم الحجري الهافانية» . ولولا ذلك لكان كل امرىء منهم خليقاً بأن يؤثر استمرار المباراة حتى النهاية . ولكنه أنهاها ، على أية حال ، وقبل أن يمضي أحد من الجماعة إلى عمله .

وطوال فترة غير يسيرة تقضّت على هذا الحادث ، خلع القوم عليه لقب «البطل» . وفي الربيع أجريت مباراة الاخذ بالثأر . ولكن سوق المراهنة لم تَرُجْ ، وكسب الشيخ الجولة في كثير من اليسر بعد أن وُفّق إلى تحطيم معنويات الزنجي في المباراة

الأولى . من ذلك الحين خاص بضع مباريات . ثم كفّ عن ذلك مرة واحدة . لقد قرر ان في وسعه أن يهزم امرىء هزيمة شنعاء لو شاء ، ولكن ذلك خليق به أن يؤذي يده اليمنى ويضعف من فعاليتها في الصيد . ولقد حاول أن يخوض بضع مباريات تدريبية بيده اليسرى . ولكن يده اليسرى كانت خؤوناً أبداً . كانت تأبى الاذعان لأوامره ، وما كان ليثق بها بحال .

وفكّر قائلاً : سوف تحمّصها الشمس جيداً ، الآن . وينبغي أن لايعاودها التشنج كرة أخرى ، إلا إذا أمسى الجوّ قارساً جداً أثناء الليل . ألا ليت شعري ، ما الذي ستحمله إليّ هذه الليلة ؟

ومرّت فوق رأسه إحدى الطائرات ، وكانت في طريقها إلى ميامي . وأوقع ظلها الذعر في قلوب السمكات الطائرة .

وقال :

– «لا بدّ ان تكون ثمة دلافين مع هذه السمكات الطائرة كلها» . وجذب الخيط قليلاً ليرى ما إذا كان يستطيع أن يكسب مقداراً منه . ولكنه لم يوفق إلى ذلك ، فكفّ عن محاولته عندما أدرك ، من قسوة الخيط وذبذباته ، انه على وشك أن ينقطع . وتقدم القارب على مهل . وراقب الشيخ الطائرة حتى غابت عن البصر .

وبينه وبين نفسه قال : يجب أن يكون امتطاء الطائرة شيئًا غريباً جداً : ويا ليت شعري كيف يبدو البحر من ذلك العلو

الشاهق ؟ لا ريب في انهم يستطيعون أن يروا الاسماك جيداً إذا لم يحلّقوا كثيراً في السماء . ولكم أحب لو أطير ، في تؤدة ، على ارتفاع مائتي قامة وأرى الاسماك من علٍ . ففي زوارق صيد السلاحف كنت أقف فوق عوارض السارية ، وحتى على ذلك الارتفاع كان في مكنتي أن أرى كثيراً . لقد بدت الدلافين من هناك أشد خضرة ، وكان في مستطاعك ان ترى الجمهرة كلها وهي تسبح . لمَ كانت لجميع أسماك التيار المظلم الخفية ظهور ارجوانية ؟ ولم كانت لها في معظم الاحوال خطوط أو نقطة أرجوانية ؟ إن الدلفين يبدو أخضر لأنه ذهبي من غير شك . ولكن ما ان يلتمس طعامه بعد ان يستبدّ به الجوع حتى تبرز الخطوط الأرجوانية على جنباته مثل أسياف البحر . ترى ، ما الذي يُطلع هذه الخطوط ، الغضب أم السرعة البالغة ؟

وقبيل هبوط الليل فيما كانا يجوزان جزيرة كبيرة من عشب سارغاس المرتفع المتموج وكأنّ الاوقيانوس كان يغازل شيئًا ما تحت غطاء أصفر ، ابتلع احد الدلافين شص خيطه الخلفي القصير . ولقد رآه ، أول ما رآه ، حين وثب في الهواء . كان لونه ذهبياً حقاً ، تحت أشعة الشمس المحتضرة ، وكان ينحني ويخبط بذنبه خبطاً ضارباً . ووثب مرة ومرة في بهلوانية ذعرِهِ . وجثم الشيخ ، ممسكاً بالحبل الكبير بيده اليمنى وذراعه ، وارتد إلى مؤخر القارب . وبيده اليسرى جذب الدلفين واطئًا ما يكسبه من الخيط بقدمه الحافية . حتى إذا انتهت السمكة إلى

مؤخر القارب مذعورة واثبة متخبطة في يأس ، انحنى الرجل العجوز ورفع السمكة الذهبية الصقيلة ، ينقطها الارجوانية ، إلى ما فوق مؤخر القارب . كانت تفتح فمها وتغلقه ، في تشنج ، على الشص . وكان جسدها الطويل المسطح يضرب ألواح القارب في حنق وعنف . ثم إن الشيخ أهوى بالهراوة على رأسها الذهبي المتوهج ، فارتعدت ثم سكنت سكون الموت .

وانتزع الشيخ الشص من فم السمكة ، وطعّم الخيط بسمكة سردين جديدة ، وألقى به في اليم . ثم اتخذ سبيله ، وئيداً وئيداً ، إلى مقدّم القارب ، وغسل يده اليسرى ومسحها ببعض بنطلونه . ثم نقل الحبل الثقيل من يده اليمنى إلى يده اليسرى ، وغسل يده اليمنى في البحر ، فيما كان يراقب الشمس تغيب في الاوقيانوس ، وينظر إلى انحراف الحبل الكبير .

وقال :

– «إنها لم تتغير على الاطلاق» .

ولكنه حين استشعر جريان الماء عبر يده أدرك ان حركة القارب قد تباطأت على نحو ملحوظ .

وقال :

– «تحدثني نفسي بأن أثبت المجذافين معاً عبر مؤخر القارب ، وبذلك أخفف من سرعة السمكة أثناء الليل . إنها مستعدة لقضاء سهرة طويلة . وكذلك أنا» .

وفكّر : من الخير أن انتزع أحشاء الدلفين بعد قليل لكي

يُحفظ الدم في لحمه . سوف أنتزعها عما قليل ، حين أثبّت المجذافين معاً تعويقاً للحركة . ويخيّل إليّ ان من الافضل أن أدع السمكة وشأنها الآن فلا ازعجها كثيراً في ساعة الغروب هذه . إن ساعة الغروب توهن عزائم السمكات جميعاً .

وترك يده تجف في الهواء ، ثم تلقّف الحبل بها ، وأراح جسده المكدود ما وسعه ذلك ، منحنياً على الخشب . وهكذا حمّل القارب مثل ما يحمله هو من ثقل الحبل المشدود ، أو أكثر .

وقال في ذات نفسه : لقد بدأت أتقن الصناعة – أو هذا الجزء منها على أية حال . ويجب أن لا أنسى ، فوق ذلك ، انها لم تأكل شيئًا منذ ان وقعت في الشرك ، وانها ضخمة جداً ، ومحتاجة إلى مقدار كبير من الغذاء . أما أنا فقد أكلت التنّ بكامله . وغداً سوف آكل الدلفين . ولعله يتعيّن عليّ أن آكل جزءاًمنه وأنا انتزع امعاءه وأنظفه . ولسوف يكون مضغة أصعب من مضغ لحم التنّ . ولكن ليس ثمة ما هو يسير ، الآن .

وسألها في صوت عال :

– «كيف أنتِ ، أيتها السمكة ؟ أنا استشعر النشاط . ويدي اليسرى أحسن من ذي قبل . وعندي من الطعام ما يكفيني هذه الليلة ونهار غد . إسحبي القارب ، أيتها السمكة ، إسحبي !»

وفي الحقّ انه لم يكن في حال حسنة كما زعم ، لأن الألم الذي أنزله الخيط الغليظ بظهره كاد يتعدى تخوم الألم لينتهي إلى خدر

كان موضع ارتيابه . وقال في ذات نفسه : ولكني عانيتُ ما هو أسوأ من هذا . إن يدي اليمنى مجروحة جرحاً بسيطاً ، ولقد تحررت يدي الاخرى من التشنج . أما رجلاي فلم يصبهما أذىً ما . وفوق هذا كله ، فقد تمّ لي التفوق على السمكة – بعدما ادخرته من غذاء – في ميدان التجلد والاحتمال .

وجلبب الظلام الكون . ففي ايلول يهبط الليل بعد غروب الشمس مباشرة . واستند الشيخ إلى القيدوم البالي ، واستراح ما وسعه أن يستريح . وبرزت طلائع النجوم . ولم يكن يعرف اسم «رجل الجبار» ولكنه رآه ، وأدرك ان جميع أصدقائه الأبعدين سوف ينتثرون وشيكاً في أجواز السماء .

وقال في صوت عال :

– «والسمكة صديقتي أيضاً . أنا لم أر ولم أسمع بسمكة مثل هذه من قبل . ولكني مضطر إلى ان أقتلها . كم انا سعيد لعدم اضطرارنا إلى ان نقتل النجوم !»

وبينه وبين نفسه قال : تخيلْ لو كان على الانسان أن ينطلق كل يوم لقتال القمر ! لا شك في ان القمر خليق في هذه الحال بأن يطلق ساقيه للريح . ولكن تخيل لو تعيّن على الأنسان ان ينطلق كل يوم لقتال الشمس ؟ وفكّر : نحن مخلوقات محظوظة من غير ريب .

ثم أخذ الحزن على السمكة الكبيرة حين خطر له ان ليس عندها ما تأكله . ولكن تصميه على قتلها لم يضعف نتيجة لحزنه

ذاك على الاطلاق . وفكّر : كم رجلاً سوف يغتذي من لحمها ؟ ولكن هل هم جديرون بأن يأكلوا لحمها ؟ لا ، طبعاً لا . ليس ثمة من هو جدير بأن يأكل هذه السمكة بعد الذي تكشفت عنه من شجاعة وجلال .

وقال في ذات نفسه : أنا لا أفهم هذه الاشياء . ولكن من حسن الطالع أننا غير مضطرين إلى ان نطارد الشمس أو القمر أو النجوم . حَسْبُنا أن نعيش على البحر وأن نطارد اخوتنا الحقيقيين .

وفكّر : والآن يتعين عليّ إن انظر في مسألة تعويق حركة القارب . إن لها مخاطرها وحسناتها . ذلك اني إذا ثبّتُّ المجذافين فقد أخسر جزءًا كبيراً من الخيط إلى درجة تعرّض السمكة للضياع ، إذا ما خطر لها أن تفرغ قوّتها كلها في الجذب وفقدَ القارب خفته . صحيح ان خفة القارب تطيل آلامي وآلامها ، ولكنها مناط سلامتي لأن السمكة لمّا تنطلقْ بعدُ بأقصى سرعتها . وأيًّا ما كان فينبغي أن أنتزع أحشاء الدلفين حتى لا يفسد ، وأن آكل شيئًا منه لكي أظل قوياً .

والآن سأستريح ساعة اخرى ثم أتأكد من ان السمكة هادئة مطردة الخطى ، قبل أن أنقلب إلى مؤخر القارب لأقوم بعملي وأحزم أمري . وفي أثناء ذلك يكون في استطاعتي أن أراقب مسلكها وما قد يطرأ عليها من تطورات . إن فكرة المجذافين هذه بارعة . ولكننا انتهينا الآن إلى مرحلة تقتضي كثيراً من

الانتباه والحذر ! فهذا السيف لا يزال سمكة سوية لها ما لسائر الاسماك الكبيرة من قوّة وجبروت . ولقد رأيت الشص في زاوية فمه وقد أطبق فمه اطباقاً محكماً . ولكن بلاء الشص ليس شيئاً . البلاء الحقيقي هو الجوع ، وكونه يقاتل ضد شيء لا يفهمه . فاسترح الآن ، أيها الرجل العجوز ، ودعه يعمل حتى يحين دورك في العمل .

واستراح ساعتين – أو ذلك ما بدا له . وإذ لم يطلع القمر إلا في ساعة متأخرة فقد عدم الوسيلة لمعرفة الوقت . ثم ان الراحة التي نعم بها لم تكن في الواقع غير راحة نسبية . كان لا يزال يحمل ثقل السمكة على منكبيه ، ولكنه وضع يده اليسرى على حافة القيدوم ، مسنداً إلى القارب نفسه جزءاً متعاظماً من مهمة المقاومة .

وفكّر : كم كان الامر خليقاً بأن يكون اسهل لو استطعت أن أشدّ الخيط إلى شيء ما . ولكن السمكة قمينة ، عندئذ ، بأن تقطعه بنترة صغيرة واحدة . يجب أن أتخذ من جسدي وسادة تخفّف من وطأة الضغط ، وان أكون مستعداً ، في كل لحظة ، لأن أرخي الخيط للسمكة ، بيديّ الاثنتين .

وقال بصوت مرتفع :

– «ولكنك لم تنم بعد ، أيها الرجل العجوز . لقد سلخت نصف نهار وليلةً بكاملها وها أنت تضيف إلى ذلك نهاراً جديداً وعيناك لم تعرفا الغمض لحظةً واحدة ! يجب أن تستنبط وسيلة

تمكنك من أن تنام بعض الشيء إذا ظل السيف يجرّك مثل هذا الجر الهاديء . لأنك ان لم تنم فقد يزايل الصفاء رأسك» .

وفكّر : إن رأسي صافٍ . بل انه صافٍ أكثر مما ينبغي . أنا في مثل صفاء النجوم التي هي اخوتي . ومع ذلك فيجب أن أنام . إن النجوم تنام . والقمر والشمس ينامان . وحتى المحيط ينام أحياناً في بعض الايام التي لا تيار فيها والتي يرين فيها الهدوء على وجه الماء .

وقال في ذات نفسه : ولكن لا تنسَ ان عليك ان تنام . أجبر نفسك على ذلك وابتدع وسيلة صغيرة مضمونة تقي الخيوط شر المفاجآت . والآن ، إرتدّ إلى الوراء وأعدّ الدلفين . إنه ليس من الحكمة أن تثبّت القارب بالمجذافين إذا كنت مضطراً إلى الرقاد .

وخاطب نفسه قائلاً : في استطاعتي ان استغني عن النوم . ولكن ذلك صنيعٌ بالغ الخطورة .

وشرع ينكفيء إلى مؤخر القارب على يديه وركبتيه ، محاذراً ان يجذب الخيط بأي حال . وقال بينه وبين نفسه : جائر ان يكون هذا السيف هو نفسه نصف نائم . ولكن هذا ليس من شأني . أنا اريد ان يحلّ التعب بساحته . يجب ان يجذب الخيط حتى يموت !

وإذ انتهى إلى مؤخر القارب ، استدار ممسكاً الحبل بيده اليسرى ، على حين استل مديته من غمدها اليمنى . كانت النجوم

متـألقـة ، وكان في ميسوره أن يرى الـدلفين في وضـوح ، وغيّب شفرة المدية في رأسه وجذبه نحوه . ثم انه وضع احدى قدميه على الدلفين ، وشقّه في خفة من أدنى بطنه إلى أعلى فكّه الأسفل . ثم وضع مـديتـه جـانبـاً وراح ينتزع أحشـاء الـدلفين بيـده اليمنى ، مفرغاً جوفه وخيـاشيمـه . وكان الكرش ثقيلاً زلقـاً بين يـديـه . وفتحه فاذا فيه سمكتان طائرتـان . كانتـا طـازجتين مكتنزتين . فوضع احـداهمـا إلى جـانب الاخرى وقـذف بـالنفـايـة في المـاء ، فغاصت مخلفـة وراءهـا خطـاً فوسفوري التوهج . وكان الـدلفين بـارداً . وإذ انطرح هنـاك تحت أشعـة النجـوم ، فقـد بـدا الآن أجـذم شـديـد الشحـوب . وسلخ الشيـخ الجلـد عن جـانب من الـدلفين واطئـا رأسـه بقـدمـه اليمنى . ثم قلّبـه وسلـخ الجلـد عن الجانب الآخر . وانتزع لحمه من الرأس حتى الذنب .

ثم انه طرح الهيكل في عرض البحر ، ونظر ليرى مـا إذا كان ثمة دراديرفي الماء . بيد انـه لم يجـد شيئـا غير انحـدار متبـاطيء مضيء . فـاستـدار ووضـع السمكتين الطـائرتين في داخـل قـدتي اللحم اللتين سلخهما من الدلفين ، وأغمد مديتـه واتخـذ سبيلـه في بطء إلى مقدّم القارب . كان ظهره محـدودبـاً تحت ثقل الخيـط ، وكان يحمل لحم الدلفين بيده اليمنى .

وحين بلـغ مقـدّم القـارب نشر قـدتي اللحم على الخشب ، ووضـع السمكتين الطـائرتين إلى جـانبهما ، ثم ركـز الحبـل فـوق ناحية أخرى من كتفيه ، ممسكاً بـه بـاليـد اليسرى ، مستنـداً إلى

حافة القارب . وبعد ذلك انحنى ليغسل السمكتين الطائرتين بالماء ، وليقدّر سرعة المياه وهي تندفع عبر يده . وكانت يده تتألق بضياء فوسفوري بسبب من انتزاعه جلد الدلفين بها ، فراح يراقب تدفّق الماء حواليها.

كان البحر أكثر هدوءاً . وحين حكّ راحة يده بألواح القارب تناثرت منها ذرات من الفوسفور وارتدّت في تؤدة نحو مؤخر القارب .

وقال الرجل العجوز :

- «هي إما متعبة أو مخلدة إلى السكينة . والآن دعني أمضي في التهام هذا الدلفين ، وأنعم بشيء من الراحة وقليل من النوم» .

وتحت النجوم ، وفي غمرة من الليل الآخذ بردُهُ في الاشتداد شيئاً بعد شيء ، أكل نصف قدة من لحم الدلفين وإحدى السمكتين الطائرتين بعد أن اطّرح أحشاءها واقتطع رأسها .

وقال :

- «ما أشهى الدلفين حين يؤكل مطبوخاً ! وما أتعسه من سمكة حين يكون نيئاً ! أنا لن أنطلق في قارب ، بعد اليوم ، من غير أن اصطحب شيئاً من الملح او الليمون الحامض» .

وقال في ذات نفسه : لو كان في رأسي دماغ لنضحتُ الماء ، طول النهار ، على مقدّم القارب . حتى اذا جفّ كان في ميسوري ان افوز بشيء من الملح . ولكني ما كنت خليقاً ، في مثل هذه

الحال ، بأن أوقع الدلفين في الشرك إلا مع غروب الشمس . ومهما يكن ، فلا ريب في ان ذلك دليل على اهمالي . ولكني مضغت اللحم كله جيداً ولم استشعر شيئًا من الغثيان .

وتلبدت السحب في ناحية المشرق ، حاجبةً النجوم التي يعرفها الشيخ واحداً إثر واحد . لقد بدا وكأنه يمضي في وادٍ من الغيوم سحيق . وسكنت الريح .

— «سوف تسوء الأحوال الجوية بعد ثلاثة ايام او اربعة ، ولكن ليس الليلة ولا غداً . فما عليك ، ايها الرجل العجوز ، إلا أن تستعد لشيء من الرقاد ما دامت السمكة هادئة مطردة السير» .

وأطبق يده اليمنى على الخيط إطباقاً محكماً . وضغط بفخذه على تلك اليد ، فيما كان ينحني بثقله كله على خشب القيدوم . ثم خفض الحبل فوق كتفيه خفضاً جزئياً وأوثقه تحت يده اليسرى .

وفكر قائلاً : في استطاعة يدي اليمنى أن تقاوم بسالة ما دام الخيط موثقاً على هذا النحو . ولو قد تراخت أثناء النوم فعندئذ توقظني يدي اليسرى حالما يولي الخيط فراراً . ولا ريب في ان هذا العبء سوف يكون ثقيلاً على يدي اليمنى . ولكن ، لا بأس ، فقد شهدتْ في ايامها ضروباً من البلاء . وحتى لو نمت نصف ساعة أو عشرين دقيقة اذن لأفادني ذلك بعض الشيء . وانحنى الى امام لكي يقاوم بجسده كله ثِقل الخيط . واذ تركزت

قوتــه برّمتهــا فــي يـده اليمنـى استسلم للرقـاد .

ولم يَر الأُسود في مـا يراه النـائم هـذه المرة . لقـد رأى رتـلاً ضخماً من خنازير البحر يبلغ طوله ثمانية أميال أو عشرة . وكان ذلك في موسم التنـاسل ، فهي تثب عـاليـاً في الهواء ثم ترتـد الى الحُفر نفسها التي احدثتها في الماء عند انطلاقها منه .

ثم رأى في المنـام انـه مضطجع في فراشـه في القريـة . وهبّت ريـح شماليـة ، وعصف بـه البرد القــارس . وكانت ذراعــه اليمنى نـائمـة ، لأن رأسـه استقر فوقهـا بـدلاً من أن يستقر فوق وسـادة مـا .

وبعـد ذلـك انشـأ يحلم بـالشـاطىء الاصفر الطـويـل ، فرأى طليعة الأسود يهبط نحو البحر في غبشة الغسق ، يتبعـه سائرهـا على الاثر . وأراح الشيــخ ذقنـــه على خشب القيــدوم وطفــق يتأمل . لقد أقامت سفينته توازنهـا بـأن ألقت مراسيهـا . وهبّت نسـائم المسـاء من الشـاطىء . ترى ، هـل ستفـد أُسـود اخرى ؟ وغمرت الشيخَ السعادة .

وكان القمر قــد طلـع منـــذ فترة غير قصيرة ، ولكن الشيـخ استرسل في رقـاده . وواصلت السمكـة جـذبهـا في اطراد ، وشـقّ الزورق طريقه في نفق من الغيوم .

وفجـأة انتفضت يـده اليمنى فلطمت وجهـه . كان الحبل قـد ألهب يده اليمنى إلهاباً ، وكانت يده اليسرى خدرة لا حسّ فيها . وكبـح الخيـطَ بيـده اليمنى ، أقصى مــا يستطيـع الكَبْـح ، ولكنّ

الخيط اندفع هارباً . وأخيراً عثرت يده اليسرى على الخيط وارتدّ الى الوراء ضاغطا على الخيط بظهره ، فاذا بالخيط يحرق ظهره ويده اليسرى ، وإذا بيده اليسرى تنهض الآن بالعبء كله فيحتزها الحبل ويدميها . والتفت الشيخ ليلقي نظرة على لفائف الخيوط ، فألفاها تكرّ على رسلها . وفي تلك اللحظة وثب السيف محدثاً انفجاراً هائلاً في مياه المحيط ثم هوى في ثقل . وما هي الا فترة حتى عاود الوثوب مرةً ومرةً ، وانطلق الزورق في سرعة برغم طول الحبل المرخى له ، وبرغم ان الشيخ أنشأ يجذب الخيط ويجذبه في ضراوة ، حتى نقطة الانقصاف . وكان من نتائج هذا الصراع أن طَرح الشيخ فوق مقدّم القارب ، وارتطم أنفه بلحم الدلفين ، فبات لا يطيق حراكاً .

وفكّر قائلاً : ذلك ما كنا ننتظره . وإذن فلا محل للشكوى .

وبينه وبين نفسه قال : إحمله على دفع ثمن هذه الخيوط كلها . إحمله على دفع ثمنها !

ولم يكن في ميسوره أن يرى السمكة وهي تثب . بيد انه كان يسمع تفجّر المحيط عند انطلاقها وطشيش الماء عند سقوطها . وكان الخيط يكرّ في سرعة فيحتز يديه ويلهبهما ، ولكنه ما كان يتوقع شيئًا غير ذلك . وحاول ان يصطنع الاجزاء الصفيقة من يديه ، محاذراً أن يمس الخيط باطن كفيه او ينزلق بين اصابعه .

وقال في ذات نفسه : لو كان الغلام هنا اذن لبلّ الخيوط . أجل لو كان الغلام هنا ! لو كان الغلام هنا !

وكرّ الخيط ، وكرّ ، وكرّ ، ولكنه شرع يتباطأ الآن . وأكره الشيخ السمكة على أن تدفع غالياً ثمن كل انش منه . ورفع رأسه عن مقدّم القارب ، وأزال عن وجهه لحم الدلفين الذي سحقه خده ، ثم نهض على ركبتيه واستوى قائماً في اناة . كان يرخي الخيط على نحو موصول ولكنه آخذ في التباطؤ شيئًا بعد شيء . وانكفأ الى حيث يستطيع ان يلمس بقدميه لفائف الخيوط التي عجز عن رؤيتها . كان لا يزال ثمة مقدار وافر من الخيوط ، وكان على السمكة الآن ان تحتمل ثقل هذه الحبال الاضافية .

وقال في ذات نفسه : أجل . لقد وثب السيف اكثر من اثنتي عشرة مرة ، حتى الآن ، وملأ الجيوب المرصوفة على ظهره بالهواء فليس في استطاعته أن يغوص ليموت في أعماق البحر حيث أعجز عن اخراجه . انه سوف يبدأ وشيكاً في التحويم ، وعندئذ يجيء دوري في سوقه الى المكان الذي أشاء . ترى ما الذي أثاره على هذا النحو الفجائي ؟ أيكون الجوع قد أوقع اليأس في فؤاده ، أم لعل شيئًا ما قد روّعه في الظلام ؟ ومن يدري ، لعل الخوف ساوره فجاءة . ولكنه كان من قبل هادئاً مكيناً ، ولقد بدا بالغ الجراءة عظيم الثقة بالنفس . ذلك أمر عجيب .

وقال :

– «من الخير ان تكون انت ، ايها الرجل العجوز ، جريئًا واثقاً من نفسك . لقد أمسكتَ بزمامه من جديد ولكنك لا تستطيع أن تسترد ما فقدته من خيوط . وعلى أية حال ، فلا ريب في انه سوف يحوّم عما قليل» .

وأخذ الشيخ بقيادة السمكة ، بكل من يده اليسرى ومنكبيه . ثم انحنى وغرف شيئًا من الماء بيده اليمنى لكي يزيل لحم الدلفين المسحوق عن وجهه . لقد كان يخشى أن تصيبه رائحة ذلك اللحم بالغثيان ، وعندئذ يقيء ويفقد قوته . حتى اذا نظف وجهه وضع يده في الماء المالح ، وتركها هناك برهة ، وانشأ يراقب طلائع الضوء الوافد بين يدي الشروق . وفكر قائلاً : انه يتجه الآن نحو الشرق تقريباً . وهذا يعني انه متعب وانه يجري مع التيار . ولن ينقضي وقت طويل حتى يشرع في الدوران . وعندئذ يبدأ عملنا الحقيقي !

وبعد ان قدّر أن يده لبثت في الماء مدة كافية اخرجها ونظر اليها .

وقال :

– «إنها في حال لا بأس بها . وليس الألم مما يبالي به الرجال» .

وأمسك بالخيط في احتراس كي لا ينزلق في أي من جراحاته الجديدة ، وأزاح حمله بحيث يتمكن من أن يضع يده اليسرى في

المـــاء ، مـــن جانـــب القـــارب الآخـــر .

وقال مخاطباً يده اليسرى :

– «أنتِ لم تحتملي هذا البلاء كله من اجل شيء لا غَناء فيه . ولكن لقد غبرتْ لحظة تفقّدتكِ فيها فلم أجدكِ !»

وفكّر : لمَ لمْ أولـد بيـدين قـويتين ؟ لعـل ذنبي لأني لم امرّن تلـك اليـد الواهنـة تمرينـاً كافيـاً . ولكن الله يشهـد ان مجـالات التعلّم كانت رحبـة امـامهـا . وعلى ايـة حـال ، فلقـد أبلت بلاء حسنـاً ، هـذه الليلـة . وهي لم يصبهـا التشنج إلا مرة واحـدة . وإذا ما تشنجت مرة اخرى فلسوف ادع الخيط يحتزها من غير ان ابدي حراكاً .

وحين خطر لـه ذلـك أدرك انـه لم يعـد صـافيَ الرأس ، وأن عليـه أن يمضـغ مـزيـداً من لحم الـدلفين . ولكني لا استطيـع – كذلك قال في ذات نفسه . فلأن تستشعر وكأن الدوار يعصف برأسك خير من أن تنفذ قوتك بالغثيان . وأنا أدري اني لن اقدر على ابتلاع هذا اللحم بعد ان امتزج بـه وجهي . من اجل ذلـك سأحتفظ به للطوارىء ، حتى يصيبه الفسـاد . ولكن لقـد فـاتني القطـار الآن ، فـأنـا لا أستطيـع ان اعـوّض قـواي من طريـق الطعام . أنت أحمق – كذلك قال بينه وبين نفسه . كُلِ السمكـة الطائرة الاخرى .

كانت هناك منطقةً جاهزة . فتناولها بيده اليسرى وأكلها ماضغاً العظم في احتراس ، ملتهماً كل ما فيها ، من الرأس إلى الذنب .

وفكر : إنها احفل بالغذاء من سائر الاسماك تقريباً . الغذاء الذي أحتاج اليه أنا، على الأقل . والآن ، لقد عملتُ الذي أستطيعه . فليبدأ في دورانه ، ولنفتتح المعركة .

وأشرقت الشمس على الشيخ وعلى قاربه للمرة الثالثة عندما أخذ السيف في التحويم .

ولم يستطع ان يستدل من انحراف الخيط ان السمكة تحوّم . فقد كان مثل ذلك الاستدلال سابقاً لأوانه في تلك اللحظة . كل ما أحسّ به تراخٍ طفيف في ضغط الخيط ، فأنشأ يجذبه في رفق بيده اليمنى . وتوتر الخيط ، كعهده من قبل ، ولكنه ما إن كاد يبلغ نقطة الانقصاف حتى غدا سلساً سهل القياد . وأزلّ الشيخ الحبلَ فوق كتفيه ورأسه ، وطفق يشدّه في تؤدة واطراد . كان يصطنع كلتا يديه ، في حركة متأرجحة ذات اليمين وذات الشمال ، محاولاً ان يحمّل جسده وقدميه أكبر قسط ممكن من مهمة الجذب . واتّبعت رجلاه الهرمتان وكتفاه الباليتان حركة يديه المتأرجحة .

وقال :

- «انها دورة ضخمة جداً . ولكنه يدور» .

وهنا أبى الخيط ان ينقاد ، فأطبق الشيخ يده عليه في إحكام حتى لقد رأى قطرات الماء تتواثب منه تحت اشعة الشمس . ثم أخذ يكرّ ، فركع الشيخ آسفاً ، وتركه يغوص في المياه المظلمة .

وقال :

– «هو ذا في أوج دورانه الآن» .

ثم فكر : ينبغي أن أتشبّث بالخيط ما استطعت . فلا ريب في أن الاجهاد سوف يضيّق نطاق دورانه مرة بعد مرة . ولعلي ان اوفّق بعد ساعة الى رؤيته . يجب أن انتصر عليه الآن ، وبعد ذلك يتعيّن عليّ أن أقتله .

لكن السمكة اقامت على التحويم ، في أناة . وبعد ساعتين تندّى جسد الشيخ كله بالعرق ، ونفذ الاعياء الى عظامه . ولكن دورات السمكة تقاصرت تقاصراً كبيراً ، ومن كيفية مَيَلان الخيط أدرك الشيخ انها ترتفع باطراد فيما هي تسبح .

وطوال ساعة ، تراقصت البقع السوداء أمام ناظري الشيخ . وأحرق العرق المالح عينيه ، وأحرق الجرحَ الذي فوق عينيه وعلى جبهته . ولم يجزع للبقع السود . فقد كانت ظاهرة سوية اذا نُظر اليها على ضوء الجهد العظيم الذي أنفقه في جذب الخيط . وأياً ما كان ، فقد استشعر مرتين دواراً ووشْكَ اغماء ، وذلك ما اقلقه حقاً .

وقال :

– «لم يكن في وسعي ان اخذل نفسي وأموت وأنا اصطاد سمكة مثل هذه . أما وقد وُفقت الى ان اقودها على هذا النحو البارع فساعدني ، يا الهي ، وأمدّني بالقوة على الاحتمال . اني أعد بأن أتلو صلاتَيْ «أبانا» و «السلام عليك يا مريم» مائة مرة .

ولكنـــي لا استـطيـــع ان افعــل ذلـك الآن !»

وفكّر : إعتبرْ أنها تليت . سوف أتلوها في ما بعد !

وفجـأة انتفض الخيـط ، وكان يمسك به بيـديــه الاثنتين ، انتفاضةً هائلة – انتفاضةً حادة ، قاسية ، ثقيلة .

وفكّر الشيخ : ان السمكة تطعن قاعدة الصنارة برمحها . لقد كان ذلـك امراً محتومـاً . فليس في وسعهـا أن تفعـل غير ذلـك . وقـد يضطرهـا هـذا الى الوثوب . ولـو كان لي أن اختـار ، إذن لآثرتُ لو واصلتْ دورانها . انها مكرهـة على الوثوب لكي تتنشق الهواء ، ولكن كل وثبة من وثباتها خليقة بأن توسع الجرح الـذي أحدثه الشص في فكها . وقـد ينتهي ذلـك بهـا الى اطّراح الشص والنجاة بنفسها .

وقال :

– «لا تثبي ، أيتها السمكة ، لا تثبي !»

وطعنت السمكـة المعـدن عـدة مرات اخرى . وكان الشيـخ يرخي الحبل للسمكة كلما هزت رأسها .

وقـال في ذات نفسـه : يجب ان اوقف ألمهـا حيث هو . أمـا ألمي أنا فلست أبالي به . في استطاعتي أن أسيطر على أوجاعي . أما أوجاعها ، فقد تفقدها صوابها .

وبعــد برهــة كفّت السمكــة عنْ ضرب معــدن الصنــارة ، واستأنفت الطواف ، في تؤدة . وراح الشيخ يسترجع الخيـط على نحـو مـوصـول . ولكنـه استشعر انـه على وشــك الاغمــاء ، كرةً

اخرى ، ورفع شيئًا من ماء البحر بيده اليسرى ونضح به رأسه ، ثم رفع مقداراً آخر ونضح رأسه كرة ثانية وفرك مؤخر عنقه .

وقال :

– «لست أشكو التشنج ، سوف ترتفع السمكة عما قليل ، وفي استطاعتي ان اثبت . إن من واجبك ان تثبت . فلا تتحدث عن ذلك ولو مجرد حديث» .

وانحنى مستنداً الى مقدّم الزورق ، وأزلّ الخيطَ فوق ظهره كرةً أخرى . وقال في ذات نفسه : سوف استريح الآن ريثما تتم دورتها ، ثم انهض حين ترجع ثانية وأستأنف نشاطي .

كان كل شيء يغريه بأن يستريح عند مقدّم الزورق ويدع السمكة تتم دورتها من غير ان يستريح شيئًا من الخيط . ولكن ما ان ظهر التوتر ان السمكة قد اتجهت نحو الزورق حتى هبّ الشيخ العجوز على قدميه ، واستأنف التأرجح والتمايل والجذب لكي يحتفظ بكل ما كسبه من الخيط .

وفكر : أنا أشد تعباً مما كنت في أيما وقت مضى .

وها هي ذي الريح التجارية تهبّ . ولكن هذه سوف تعينني على السمكة . أنا في أمسّ الحاجة الى شيء من الهواء المنعش .

– «سوف استريح حتى الجولة الثانية ريثما تقوم بدورتها . ولقد اخذ النشاط يعاودني . وما هي إلا دورتان أو ثلاث حتى أظهر عليها» .

وكانت قبعته المصنوعة من قش قد دُفعت الى مؤخر رأسه دفعاً بعيداً . واستهلكت السمكة دورةً جديدة . وتوتر الخيط كرةً اخرى فخرّ الشيخ على مقدّم القارب .

وفكر قائلاً : هذا دورك في العمل يا عزيزتي . ولكني سوف اقضي عليكِ حين تنعطفين .

وكانت مياه البحر قد ارتفعت ارتفاعاً بالغاً . ولكنها كانت إحدى نسائم الجو الجميل . وكان هو في حاجة اليها من اجل العودة الى هافانا .

وقال :

– «سوف ادير الدفة في اتجاه الجنوب والغرب . إن المرء لا يضلّ سبيله في البحر ابداً . وكوبا على كل حال جزيرة طويلة» .

وعند الدورة الثالثة ابصر الشيخ سمكته آخر الامر . لقد رآها ، أول ما رآها ، مثل ظلّ اسود استغرق مروره تحت القارب فترة طويلة من الوقت جعل الشيخ لا يصدق انها على هذا الطول كله .

وقال :

– «لا . إنها لا يمكن ان تكون ضخمة الى هذا الحد» .

ولكنها كانت ضخمة الى هذا الحد . وحين اتمت دورتها الثالثة تلك ، وانبثقت بكاملها ممتدةً على مسافة ثلاثين ياردة ابصر الشيخ ذنبها خارجاً من الماء . كان أعلى من شفرة منجل

كبير . وكان لبونه ازرق شديد الشحوب فوق زرقة الماء الداكنة . وفجأة اختفى الذنب . وفيما كانت السمكة تسبح تحت سطح البحر مباشرة صار في استطاعة الشيخ ان يرى الى حجمها الضخم والى العصائب الارجوانية التي تطوّق جسدها . كانت زعنتها الظهرية ملوية ، وكانت زعانفها الصدرية منشورة على مداها .

وفي تلك الدورة استطاع الشيخ ان يرى عين السيف ، والسُمَيكتين الرماديتين السابحتين حوله . كانتا تلتصقان احياناً بالسيف وتنفصلان احياناً عنه . وكانتا احياناً اخرى تسبحان في ظله آمنتين مطمئنتين . وكان طول كل منهما يعدو ثلاثة اقدام . وكانت سباحتها السريعة تذكّر بحركة الانقليس المتثنّية .

كان الشيخ يتصبب عرقاً ، ولكن بسبب شيء آخر غير الشمس . ومع كل دورة من دورات السمكة الهادئة المسالمة كان الشيخ يسترجع جزءاً من الخيط ، وقد بات على مثل اليقين من انه سوف يكون في ميسوره ان يطعنها بالحربون بعد دورتين اثنتين .

وبينه وبين نفسه قال : ولكن يجب ان استاقها الى مكان قريب - قريب جداً . وينبغي ان لا أستهدف الرأس . القلب هو الذي يجب عليّ ان أستهدفه .

وقال :

- «كن هادئاً وقوياً ، ايها الرجل العجوز !»

وفي الدورة التالية برز ظهر السمكة من تحت الماء . ولكنه كان بعيداً عن الزورق بعداً غير يسير . وفي الدورة التي عقبتها كان لا يزال على مثل ذلك البعد ، ولكنه كان اكثر ارتفاعاً فوق سطح الماء . وايقن الشيخ بأنه اذا استرد مقداراً اضافياً من الخيط فعندئذ يوفق الى ان يقود السيف حتى حافة الزورق .

وكان قد أعدّ الحربون منذ فترة طويلة ، وكان حبله الرقيق ملتفاً في سلة مدورة ، وقد شدّ اقصاه الى الوتر القائم في مقدّم القارب .

وفي تؤدة أتمت السمكة دورتها . كانت فاتنة حقاً ، وكان ذنبها هو وحده الذي يتحرك . وجذب الشيخ الخيط بأقصى ما يستطيع ان يجذبه لكي يزيد السمكة قرباً من الزورق . وانقلبت السمكة على جنبها ، لحظة ليس غير ، انقلاباً جزئياً . ثم انها استقامت ، واستهلت دورة جديدة .

وقال الرجل العجوز :

– «لقد حرّكتُها ! لقد حركتها اذن !»

وأحسّ بالدوار يعصف برأسه ، ولكنه واصل جذب الخيط مفرغاً في ذلك كامل قوّته . وبينه وبين نفسه قال : لقد حرّكتُها ، ولعلي أن أوفّق هذه المرة لأن أسوقها حتى القارب . والآن ، اسحبا أيتها اليدان ! تماسكا أيتها الرجلان ! وأنت يا رأسي ، إبقَ الى جانبي ! أنت لم تفارقني في يوم من الأيام . هذه المرة سوف أجرها حتى الزورق .

ولكنه ما ان أخذ يجذب الخيط بأقصى ما يستطيع من قوة بادئاً ذلك قبل أن تقترب السمكة من القارب ، حتى وفق السيف الى أن ينأى ويعرض بجانبه . ثم استقام واتخذ سبيله في البحر .

وقال الرجل العجوز :

– «أيتها السمكة ، إنكِ سوف تموتين على أية حال . أتريدين أن أموت أنا أيضاً ؟»

وفكّر : هذه طريقة حمقاء لا تؤدي الى شيء . وكان فمه جافاً الى درجة جعلت من المتعذر عليه أن ينطق بكلمة . ولكنه ما كان قادراً على أن يبلغ الماء . وتابع تفكيره : ينبغي أن أستاقه الى الزورق هذه المرة . أنا لا أستطيع الثبات طويلاً بعد هذا . ثم خاطب نفسه قائلاً : بل في استطاعتك أن تثبت ! في استطاعتك أن تثبت الى آخر الدهر !

وعند الدورة التالية أوشك الشيخ أن يفوز بالسمكة . ولكنها ما لبثت أن استقامت كرةً أخرى ومضت تسبح في أناة .

وبينه وبين نفسه قال : انك تقتلني أيها السيف ، ولكن لك الحق في ذلك . فأنا لم أشهد عمري كله شيئًا أكبر منك أو أجمل ، أو أرصن ، أو أنبل ، أيها الأخ . هيا اقتلني . فلست أبالي ، بعد ، أيّنا قتلَ الآخر .

وفكّر قائلاً : يبدو أن رأسك أمسى مشوّشاً . يجب أن تحافظ على صفاء رأسك . حافظ على صفاء رأسك واعرف كيف

تحتمل بلاءك كإنسان . ثم أردف : أو كسمكة !

وقال في صوت لم يسمعه الا بشق النفس :

– «إستعد صفاءك ، أيها الرأس . إستعد صفاءك !»

ومرتين أخريين ، دار السيف من غير أن يوفق الشيخ الى طعنه .

واستشعر انه على وشك أن يخرّ فاقد الوعي ، وخاطب نفسه قائلاً : لست أدري . لست أدري . ولكني سأحاول مرة اخرى .

وحاول مرة اخرى . ولم يكد يقلب السمكة حتى أحس بالدوار يعصف برأسه . وقوّمت السمكة نفسها ونأت في تؤدة ملوّحة بذنبها الطويل في الهواء .

وأكد الشيخ : سوف احاول مرة اخرى – على الرغم من أن الوهن كان قد غلب على يديه ، ولم يعد في ميسوره ان يبصر الا في لحظات معدودات .

وأعاد الكرة ، فلم يوفّق الى مبتغاه ، وأدركه حسّ الاغماء قبل ان يخاطب نفسه : وهكذا فسوف اكرر المحاولة من جديد .

واستجمع كل ما بقي من قوّته وشجاعته وكبريائه التي تقضّت منذ زمن بعيد وحشدها في وجه السمكة المحتضرة . واقتربت هذه من القارب ، سابحة في رفق ، وقد اوشك انفها ان يمسّ ألواح القارب ، وبدأت تجوز الزورق طويلةً ، عميقة ، عريضة ، فضية ، معصبّة بالأرجوان ، لا متناهية .

وطرح الرجل العجوز الخيط ، ووطئه بقدمه ، ورفع

الحربون أعلى ما يستطيع أن يرفعه ، وأغمده بكل قواه مردَفةً بالقوة الجديدة التي حشدها في تلك اللحظة – في جانب السمكة خلف زعنفة الصدر الكبرى التي علت في الهواء فكان ارتفاعها يضاهي ارتفاع صدر الشيخ . وأحس بحديد الحربون ينفذ في لحم السمكة فانحنى فوقه ودفعه الى ابعد طارحاً ثقل جسده كله عليه .

وكأن السمكة استشعرت دبيب الموت في اوصالها فارتدّت الى الحياة ، ووثبت عالياً من تحت سطح الماء عارضة كامل طولها وعرضها الباذخين وكامل قوتها وجمالها . وبدت وكأنها معلقة في الهواء فوق الشيخ والقارب . ثم هوت الى اليمّ في طشيش أثار رشاش الماء فوق رأس الشيخ وفوق القارب كله .

وألح الدوار والكلال على الشيخ ، فلم يعد قادراً على ان يرى جيداً . ولكنه حل خيط الحربون وتركه ينزلق في بطء بين يديه المسلوختي الجلد . حتى اذا عاودته القدرة على الإبصار رأى السيف مستلقياً على ظهره ، وبطنُه الفضي ناهدّ الى أعلى . وكان نصل الحربون ناتئًا على نحوٍ منحرف ، من كتف السمكة ، وكانت مياه البحر تصطبغ بلون الدم السائل مِن فؤادها . وكان ذلك اللون داكناً بادىء الأمر مثل شاطىء ضحل ، في ذلك البحر الأزرق الذي يزيد عمقه على ميل . ثم انتشر انتشار السحاب . وكانت السمكة لجينيةً ساكنةً ، وكانت تطفو مع الأمواج .

وفي تلـك الفترات القصيرة التي تمكّن خـلالهـا من الابصـار خـدّق إلشيخ في اهتمام ، ثم لفّ جبل الحربون مرتين اثنتين حول الوتد القائم عند مقدّم الزورق ووضع رأسه بين يديه .

وقال مستنداً الى خشب القيدوم : حافظ على صفاء رأسك . انـا رجـل عجـوز متعّب . ولكني قتلت هـذا السيف الـذي هـو اخي ، ويتعيّن عليّ ان اقـوم الان بمختلف ضروب العمـق الشاق .

وفكّر : يجب أن أعـدّ الحبـل والعُرى لكي أجرّ السمكـة الى جـانب القـارب . وحتى لو كنـا اثنين ، وحنّيْنـا القـارب لنُقلّهـا عليه ثم افرغناه من الماء لمـا كان في ميسور القـارب ان يحملهـا . يجب ان اعِدّ الآن كل شيء ، ثم أقتادُهـا وأشـدهـا بـالحبـال شـداً محكمـاً . حتى اذا تمّ لي ذلـك أقمتُ السـاريـة ، ونشرت الشراع ، ورجعت الى بيتي .

وشرع يجـذب السمكـة لكي تصبح في محـاذاة القـارب ، ولكي يكون في ميسوره ان يُدخل الحبل من خلال خياشيمها ويخرجـه من فمها ثم يشدّ رأسها الى القيدوم . وقال في ذات نفسـه : اريـد أن اراها . أن إلمسهـا . أن اجسّهـا . إنهـا ثروتي . ولكنْ مـا لهـذا أريد أن أجسهـا . وتـابع حـديثـه البـاطني : أحسب أني مسستُ قلبها حين أغمدت نصل الحربون في المرة الثانية . إسحبها إلى هنا الآن ، وأحكِمْ وثـاقهـا ، وأمرّ انشوطـة حول ذنبهـا ، وأنشـوطـة حول وسطها لشدّها إلى القارب .

وقال :

– «هيا إلى العمل ، أيها الرجل العجوز !» وتناول جرعة من الماء ، ثم أردف : «أمامك أعمال شاقة كثيرة يجب أن تقوم بها بعد ان انتهى القتال إلى غايته» .

ورفع بصره إلى السماء ، ثم خفضه نحو سمكته . لقد تأمّل موقع الشمس في اهتمام . وفكّر وقال في ذات نفسه : نحن لم نَعْدُ الظهيرة كثيراً . وها هي ذي الريح التجارية تهبّ . والحبال ، إنها لم تَعُدْ ذات غناء ، منذ اليوم . ولكني سوف أصل ما بينها ، أنا والغلام ، حين أنتهي إلى البيت .

وقال :

– «هيّا ، تقدمي أيتها السمكة!»

ولكن السمكة لم تتقدم . لقد أقامت هناك متمرغة في الماء ، فاضطر الشيخ إلى أن يسحب القارب إلى ناحيتها .

حتى اذا انتهى اليها وارتطم رأسها بمقدّم القارب لم يصدّق الشيخ عينيه : كانت ضخمة إلى حد بالغ . وفي الحال نزع حبل الحربون عينيه . كانت ضخمة إلى حد بالغ . وفي الحال نزع حبل الحربون من وتد المقدّم وأمره في خيشوم السمكة مخرجاً إياه من فكّيها ، وأداره حول رمحها ليُمرّه بعد في خيشومها الآخر . حتى إذا تمّ له ذلك لف الحبل كرةً ثانية حول رمح السمكة وعقّدَ طرفيه ، وشدّ السمكة كلها إلى الوتد القائم في مقدّم القارب . ثم انه قطع ما تبقّى من الحبل وارتدّ إلى مؤخر

الزورق لكي يشدّ الذنب بالطريقة نفسها .

وكان لون السمكة الارجواني الفضي قد حال الآن فضياً خالصاً ، وتكشّفت العصائب عن مثل لون الذنب البنفسجي الشاحب . وكانت تلك العصائب أعرض من يد المرء وقد نشر أصابعه . أما عين السمكة فبدت نافرة متوحدة مثل مرايا البريسكوب ، أو مثل قديس في موكب .

وقال الشيخ :

– «لم يكن ثمة وسيلة أخرى لقتلها» .

كان شيء من النشاط قد عاوده بعد جرعة الماء التي تناولها . وصفا رأسه ، وأدرك انه لن يغمى عليه بعد الآن . وفكّر : إن وزنه في ما يبدو يزيد على الف وخمسئة رطل . ولعله ان يبلغ أكثر من ذلك بكثير . ولنفرض انه قد بقي منه ، بعد انتزاع الزوائد ، ثلثا هذا الرقم ، وان ثمن كل رطل ثلاثون سنتاً فكم تبلغ قيمة هذه السمكة ؟

وقال :

– «احتاج إلى قلم لكي أجري حساب ذلك . ولعل رأسي غير صافٍ إلى هذا الحد . ولكني أظن ان دي ماغيو العظيم سوف يكون فخوراً بي اليوم . أنا لم أشكُ أيّ نتوء في عظم العقب ، ولكن يديّ ملتهبتان وظهري كذلك» .

وفكّر : تُرى أيّ شيء هذا الذي يدعونه نتوءًا في عظم العقب ؟ لعلنا نصاب به من غير أن نشعر .

وشدّ السمكة إلى مقدّم القارب ومؤخره وإلى مقعد التجذيف الاوسط . كانت بالغة الضخامة حتى لقد خُيل اليه وكأنه يشد إلى قاربه قارباً أكبر منه بكثير . وقطع جزءاً من الحبل وربط فكّ السمكة الادنى إلى أنفها لكي لا ينفتح فمها فيعوق حركة القارب . ثم إنه أقام السارية . وبالعصا التي كانت له بمثابة المحجن ، نشر الشراع . واتخذ الزورق سبيله في البحر ، واضطجع الشيخ نصف اضطجاع في مؤخر القارب ، وأدار السكان نحو الجنوب الغربي .

ولم يكن في حاجة إلى بوصلة لكي تنبئه أين يقع الجنوب الغربي . كان حَسْبُهُ أن يستشعر الريح التجارية ويراقب تموجات الشراع . وقال في ذات نفسه : من الأفضل أن أدلي بخيط صغير شُدّ اليه شصّ على شكل ملعقة لكي أصطاد شيئاً آكله وأبلّ عروقي بنداوته . ولكنه لم يهتدِ إلى الشصّ الملعقيّ ، وكانت ذخيرته من السردين قد فسدت . وهكذا التقط بالمحجن حزمة من عشب «الخليج» الاصفر ثم هزها لكي يُسْقط أسماك الروبيان الصغيرة العالقة بها فوق ألواح الزورق . وهكذا تساقط ما يزيد على دزينة منها ، وراحت تثب وترفس مثل براغيث البحر . وفصل الشيخ ، بسبابته وإبهامه ، رؤوس السُّميكات عن أجسادها ، ثم أكلها كلها حتى أصدافها وأذنابها . كانت ضئيلة جداً ، ولكن ريحها طيب ، وقوتها الغذائية كبيرة .

وكان قد بقي للشيخ في زجاجة الماء ملء كأسين ليس غير .

حتى إذا التهم سميكات الروبيان جرع مقدار نصف كأس . وأبحر الزورق على نحو مرضٍ – إذا اعتبر المرء مختلف العوائق والعقبات – وقاده الشيخ ومقبض السّكان تحت ذراعه . كان في ميسوره أن يرى إلى السمكة ، وكان بحسْبه أن ينظر إلى يديه ويتحسّس ظهره بمؤخر الزورق لكي يدرك ان ذلك قد وقع فعلاً ، ولم يكن حلماً من الاحلام . ففي فترة ما ، حين اشرفت المعركة على الانتهاء . وبلغ الاعياء منه كل مبلغ ، خُيّل للشيخ ان الامر قد لا يعدو ان يكون مناماً . حتى إذا انطلق السيف من أعماق الماء ، وتدلى في السماء ، من غير حراك ، قبل ان يسقط في اللجة ، ثبت للشيخ ان ثمة شيئًا عجيباً جداً لا يستطيع هو أن يؤمن به . إنه ما كان قادراً على أن يبصر جيداً ، آنذاك . أما الآن فهو يرى كأحسن ما اعتاد أن يرى .

لا ، إنه يرّى ذلك كله في ما يراه النائم ، وها هي ذي السمكة الكبيرة تحت ناظريه ، وها هما يداه وظهره بجراحاتها والتهاباتها . وقال في ذات نفسه : سوف تشفى اليدان سريعاً . لقد أثخنتهما بالجراح ، ولكن الماء المالح سوف يلأم تلك الجراح . إن مياه «الخليج» الحقيقي السوداء هي أعظم دواء في الوجود . وكل ما يتعيّن عليّ الآن هو أن أحتفظ بصفاء الرأس . لقد قامت اليدان بمهمتها ، وها نحن نبحر في سهولة ويسر . أجل نحن نبحر ، أنا والسّيف ، مثل أخوين ، بعد أن أغلق فمه واستقام ذيله . ثم غامَ رأسه بعض الشيء ، وشرع يفكّر : أهو

الذي يقودني ، أم أنا الذي أقوده ؟ لو كنت أقطره خلفي لما كان ثمة شك في المسألة . ولو قد كان هذا السيف منطرحاً في الزورق ، بعد ان زايله جلاله كله ، لما كان ثمة شك أيضاً . ولكنهما كانا يُبحران ، وقد شُدّ أحدهما إلى الآخر جنباً إلى جنب . وقال الشيخ في ذات نفسه : فليقدني هو إذا كان ذلك يروق له . أنا لم أفز عليه إلاّ بالحيل والاساليب غير الشريفة . وهو لم يكن ليقصد إلى ايذائي ، على الاطلاق .

واتخذا سبيلهما الهادىء في البحر . ونقعَ الشيخ يديه في الماء الأجاج ، وحاول أن يحتفظ بصفاء رأسه . وكان يظللها ركام من الغيوم السامقة ومقدار غير يسير من سُحب الطحارير جعل الشيخ يدرك ان الريح سوف تهبّ طوال الليل . ونظر الشيخ إلى السمكة الكبيرة نظراًموصولاً لكي يوقن أنها حقيقة راهنة ! وكان ذلك قبل أن يهاجمه أول الاقراش .

ولم يكن ذلك القرش هناك ، مصادفة أو اتفاقاً ، ذلك بأنه غادر أعماق الاوقيانوس حين تشكلت سحابة الدم الداكنة ثم تبدّدت خَلَل المياه البالغ عمقها ميلاً . وكان قد انطلق في سرعة بالغة ومن غير ما احتراس البتة ، حتى لقد كسر صفحة الماء الازرق . وأعشتهُ أشعة الشمس ، فارتدّ غائصاً في البحر . ثم انه اهتدى من طريق الشمّ إلى الاثر الدامي ، وأنشأ يسبح متعقباً الزورق والسمكة .

وكان يضلّ الاثر ، في بعض الاحيان ، ولكنه ما يلبث أن

يهتدي اليه ، أو تدلّه أمارة ما عليه ، فينطلق سابحاً خلف الزورق . كان قرشاً ضخماً جداً من الضرب المعروف باسم «ماكو» ، وقد أعِدّ ليسبح بأسرع مما تسبح أي سمكة من سمكات البحر . كان كل ما فيه جميلاً ، ما عدا فكّيه . وكان ظهره أزرق كالسمكة السيف ، وكان بطنه لجينياً ، وجلده جميلاً أملس . وكان أشبه ما يكون بأحد أسياف البحر ، لولا فكّاه الضخمان اللذان كانا مطبقين ، الآن ، إطباقاً محكماً فيما هو يندفع سابحاً في سرعة ، تحت سطح البحر مباشرة ، وقد شقّت الماء زعنفتُه الظهرية العالية ، كشفرة فولاذية ، من غير ان تتذبذب . وفي فمه المطبق ، كانت ثمانية صفوف من الانياب المنحرفة ، المرتدّة رؤوسها نحو الداخل ، ولم تكن مثل الاسنان الهرمية العادية التي لمعظم الاقراش ، ولكنها كانت أشبه شيء بأصابع إنسان مُنْشَبة كالبراثن ، وكان طولها يبلغ طول أصابع الشيخ تقريباً ، وكان لكل منها – على الجانبين – حافتان قاطعتان كالموسى . وكانت أسماك البحر ذات السرعة والقوة البالغتين ، والاسلحة الواقية ، تعتبر ان ليس لها عدوّ غير هذه السمكة . إنها قادرة على أن تلتهمها جميعاً .

وتعاظمت سرعة القرش حين استروح عبق الدم الاكثر غضاضة . وأنشأت زعنفته الظهرية تشق عباب الماء .

وحين بَصُرَ الشيخ بتلك السمكة تتقدّم نحوه أدرك أن ذلك قرش لا يعرف الخوف سبيلاً إلى قلبه ، وانه خليق به ان يفعل

كل ما يحلو له على وجه الضبط . وأعدّ الشيخ الحربون وأوثق الحبل ، فيما هو يراقب القرش يتقدم . وكان الحبل قصيراً بعد ان أعوزه ما اقتطعه منه قبل ذلك لكي يشد وثاق السيف .

واستشعر الشيخ النشاطَ والصحوَ . وكان ينضح قوة وعزماً ، ولكنه كان قليل الامل في النجاح . وفكّر قائلاً : هذا الوضع جيد إلى درجة تجعل استمراره أمراً متعذراً . وألقى نظرةً على السمكة الكبيرة فيما راح يراقب تقدم القرش نحو الزورق . وقال بينه وبين نفسه : كان من الممكن ان يكون هذا حلماً أيضاً . أنا لا أستطيع ان أحول بينه وبين الهجوم عليّ ، ولكن لعلي أوفق إلى ان اصرعه . وفي ذات نفسه قال : أيها القرش ، لأمّك الهَبَل !

وانتهى القرش إلى مؤخر الزورق . حتى إذا هاجم السيف رأى الشيخ فمه المفتوح ، وعينيه الغريبتين . وسمع أسنانه تصطك مطبقة على اللحم الذي يجاوز الذيل مباشرة . وأخرج القرش رأسه من الماء ، وارتفع ظهره الى سطح البحر . وكان جلد السيف ولحمه قد شرعا يتمزقان في اللحظة التي طعن فيها الشيخ رأس القرش بحربونه ، عند تلك النقطة التي تعارض فيها الخط الممتد ما بين العينين بالخط المرتدّ من الأنف مباشرة . ولم تكن هذه ، في الواقع ، غير خطوط وهمية . إذ لم يكن ثمة غير الرأس الأزرق الثقيل المستدقّ ، والعينين الكبيرتين ، والفكّين الواخزين المفترسين كل شيء . ولكن ذلك مستقر الدماغ ،

فطعنه الشيخ هناك . طعنه بيديه الداميتين الزلقتين مغمداً حربونه المطواع بأقصى ما يستطيع من قوة . طعنه من غير أمل ، ولكن في عزم ، وفي حقد غامر .

وانقلب القرش على جنبه ، فرأى الشيخ ان عينه كانت خلواً من الحياة . وانقلب على جنبه كرة أخرى لافّاً نفسه بالحبل مرتين . وأدرك الشيخ ان القرش قضى نحبه ، ولكنه يأبى التسليم بذلك . لقد استلقى على ظهره ، صافعاً بذنبه الهواء ، مطبقاً أنيابه على الفراغ ، وأنشأ يثير الماء مثل زورق من زوارق السباق . وازبدت المياه حيث أصابها ذيله . وكان ثلاثة ارباع جسده فوق سطح الماء عندما توتر الحبل ، وارتعش ، ثم انقصف . وانطرح القرش ساكناً فوق سطح الماء ، فترة قصيرة ، ثم غاص إلى الاعماق في اناة بالغة .

وقال الشيخ في صوت عال :

- «لقد التهم نحواً من اربعين رطلاً» .

ثم فكّر : ليس هذا فقط ، بل لقد أخذ حربوني أيضاً ، والحبل بكامله . وها هي سمكتي يسيل منها الدم كرة أخرى . ولا بدّ أن تُقبل الآن أقراش أخرى .

ولم يؤانس في نفسه ميلاً إلى النظر إلى السمكة بعد أن بُترت وشوّهت . فحين نهش القرش لحم السمكة أحس الشيخ وكأنّ لحمه هو ، الذي نُهش .

وبينه وبين نفسه قال : ولكني قتلتُ القرش الذي نهش لحم

سمكتي . وكان اكبرَ الاقراش التي رأيتها في حياتي . والله وحده يعلم كم قرشٍ أضخم أبصرت عيناي .

وفكّر : كانت الحال أجود من أن تستمرّ . ليت ذلك كله كان حُلماً ، وليتني لم اصطد هذا السيف . بل ليتني كنت في سريري فوق الصحف العتيقة .

وقال :

– «ولكن الانسان لم يُخلق للهزيمة . الانسان قد يُدمَّر ولكنه لا يُهزم» .

وفكّر : ومع ذلك فأنا آسف لقتلي هذه السمكة . وها قد أوشكت الاحوال الجوية ان تسوء ، وليس عندي حربون . إن القرش وحشيّ وبارع ، قوي وذكي ، ولكني كنت أذكى منه . ولكن من يدري ؟ لعلي كنت أقوى سلاحاً ليس غير .

وقال في صوت عال :

– «لا تفكر ، أيها الرجل العجوز . أبحر في هذا الاتجاه ، وواجِهِ الاشياء عند حلولها» .

وبينه وبين نفسه قال : ولكن يتعيّن عليّ أن أفكّر . لأن التفكير هو كل ما تبقى لي . اعني التفكير والبيسبول . ترى ، ما رأى دي ماغيو الكبير في الطريقة التي طعنته بها في الدماغ ؟ وفكّر : ولكنها لم تكن شيئًا عظيماً . وكان في ميسور أيّ رجل أن يفعل مثل ذلك . ولكن هل تظن أن يديّ المسلّختين كانتا عائقاً كبيراً كنتوء عظم العقب ؟ لست أدري .

أنا لم اشكُ ألماً في عقبي ، طوال حياتي ، إلا حين وطئت ، وأنا أسبح ، احدى السمكات المفلطحة فلسعت عقبي بحُمتها . وحتى هذه اللسعة شلّت رجلي كلها ، وأورثتني ألماً لا سبيل إلى احتماله .

— «فكّر في شيء يوقع البهجة في فؤادك ، أيها الرجل العجوز . ان كل دقيقة تقربك خطوات من البيت وانت تبحر الآن في سرعة أعظم بعد أن خسرت أربعين رطلاً من لحم السمكة» .

وكان يعرف جيداً ما الذي سيقع حين ينتهي إلى قلب التيار . ولكن لم يكن ثمة ما يُعمل ، الآن .

وقال في صوت عال :

— «بلى ، هناك ما يمكن أن يعمل . في استطاعتي أن اشد مديتي إلى عقب أحد المجذافين» .

وكذلك فعل ، ومقبض السّكان تحت ذراعه ، والحبل المعدّل لاتجاه الشراع تحت قدمه .

وقال :

— «والآن ، أنا لا ازال شيخاً كبيراً ، ولكني لست أعزل من السلاح» .

كان النسيم عليلاً . وكان الزورق يبحر في سلامة . ولم يكن في مستطاع الشيخ أن يرى غير الجزء الاعلى من سمكته . وعاوده الامل بعض الشيء .

وخاطب نفسه قائلاً : من الحماقة ان يفقد المرء الامل . وإلى هذا ، فأنا أعتبر ذلك إثماً . ولكن دع عنك التفكير في الاثم . إن عندك من الهموم ما لا يبقى مجالاً للتفكير في الإثم . أضف إلى ذلك اني لا أفهمه على الاطلاق .

أنا لا أفهم الاثم ، ولست واثقاً من انني اؤمن به . ولعله كان اثماً ان أقتل السمكة . بل اني لأظنه كذلك ، برغم اني أقدمت عليه لكي أسد رمقي وأطعم كثيراً من الناس . ولكن كل شيء يصبح عندئذ اثماً . لا تفكر في الاثم ، أيها الرجل العجوز . لقد فاتك القطار الآن ، وهناك اناس تُدفع اليهم الاجور لكي يقترفوه . دعهم يفكرون في ذلك . أما أنت فقد وُلدت صياداً كما وُلدت السمكة لكي تكون سمكة . القديس بطرس كان صياد سمك ، ووالد دي ماغيو العظيم كذلك .

ولكنه كان مولعاً بالتفكير في جميع الاشياء التي تعنيه . وإذ لم يكن عنده شيء يقرأه أو راديو يستمع اليه فقد استغرق في التفكير ، وأصرّ على النظر في موضوع الخطيئة . انت لم تقتل السمكة لأنك تتصوّر جوعاً ، ولا لمجرد رغبتك في بيعها – كذلك قال في ذات نفسه . لقد قتلتّها بسائق الزهو والخيلاء ، ولأنك صياد سمك . لقد أحببتّها حين كانت على قيد الحياة . ولقد أحببتّها بعد ذلك أيضاً . وإذا كنت تحبها فليس من الإثم ان تقتلها . أم أن ذلك أدهى وأمرّ ؟

وقال في صوت مرتفع :

– «أنت تفكر كثيراً ، أيها الرجل العجوز» .

وحدّثته نفسه : ولكنك وجدتَ متعة في قتل القرش . إنه يعيش على السمك الحي ، مثلك . إنه لا يحيا على الجيف ، وليس مجرد معدة متحركة مثل بعض الاقراش . انه جميل ، ونبيل ، وليس يعرف الخوفَ من اي شيء .

وصاح الشيخ :

– « لقد قتلتُه دفاعاً عن النفس . ولقد قتلتُه في ضراوة» .

وبينه وبين نفسه قال : وإلى هذا فكل شيء يقتل كل شيء آخر بطريقة ما . إن صيد السمك يفتك بي كما يبقيني على قيد الحياة ، سواء بسواء . والغلام يمدني بالحياة . ينبغي ان لا أخدع نفسي أكثر مما ينبغي .

وانحنى فوق جانب الزورق ، وانتزع قطعة من لحم السيف الذي نهشه القرش . ومضغها معجباً بجودتها وحسن مذاقها . كانت خلواً من الالياف ، ولقد أدرك الشيخ انها خليقة بأن تفوز في السوق بالسعر الاعلى . ولكن لم تكن ثمة وسيلة للحيلولة بين عبيرها والنفاذ إلى أعماق البحر ، وكان الشيخ يعلم ان ذلك سوف يجرّ عليه متاعب مزعجة جداً .

وكانت الريح تهب على نحو موصول . لقد ارتدّت بعض الشيء ، كما فعلت من قبل ، إلى الشمال الشرقي ، فعرفَ الشيخ من ذلك انها لن تهدأ . وتطلع الرجل العجوز أمامه ، ولكنه لم يستطع أن يرى شراعاً ما ، أو دخاناً ما ينبعث من أي مركب .

لم يكن ثمة غير السمكات الطائرة التي انطلقت من مقدّم زورقه واتخذت سبيلها ذات اليمين وذات الشمال ، وغير اعشاب «الخليج» الصفراء . إنه ما كان قادراً على أن يرى عصفوراً واحداً .

وكان قد أبحر على هذا النحو ساعتين اثنتين ، مستنداً إلى مؤخر الزورق ، ماضغاً بين الفينة والفينة قطعة من لحم السيف ، محاولاً أن يستريح ويستعيد قواه ، عندما بَصُرَ بأول القرشَين . وصاح :

– «آي !»

ولا سبيل إلى ترجمة هذه الكلمة . ولعلها مجرد صوت كذلك الذي يُرسله المرء ، على نحو غير اراديّ ، حين يحس بالمسمار يخترق يده ويغيب في الخشب .

وصاح :

– «غالانوس» Galanos .

لقد رأى الزعنفة الثانية تتقدم خلف الاولى ، فأدرك انه امام قرشين من ذوات الانف الشبيه بالمسحاة . وإنما عرف ذلك من الزعنفة السمراء المستطيلة ، ومن حركات الذنب الشبيهة بضربات المكنسة . لقد استروحا دم السيف ، فهاجهما ذلك ، ولكن جوعهما العظيم الاحمق كان يُضلّهما الاثر ثم يردّهما اليه من غير انقطاع . ومع ذلك فقد كانا يقتربان من الزورق على نحو موصول .

وأوثق الشيخ الحبل المعدّل لاتجاه الشراع . وثبّت مقبض

السّكان ، وأمسك بالمجذاف الذي شدّ اليه المدية . ورفعه بأقصى ما يستطيع من الرفق ، لأن يديه كانتا تتميزان ألماً . ثم إنه فتحها وأطبقها على المجذاف ، غير مرة ، وفي أناة ، تلييناً لهما . وأخيراً أطبقهما في إحكام بالغ لكي يخنق الألم اللاذع ، وأنشأ يراقب القرشين المندفعين نحو الزورق . لقد رأى رأسيهما العريضين المسطحين الشبيهين بالمسحاة ، وزعانفهما الصدرية العريضة البيضاء الرؤوس . كانا قرشين قذرين ، كريهي الرائحة يعيشان على الجيف أكثر مما يعيشان على الصيد والقنص . وكانا إذا ما استبدّ بهما الجوع خليقين بأن يهجما على مجذاف الزورق أو دفته فيعضّاهما ، وبأن يقطعا ارجل السلاحف وأيديها حين تكون السلاحف نائمة فوق سطح الماء . ليس هذا فحسب ، بل لقد كانا خليقين بأن ينقضّا على الانسان فيطرحاه في الاعماق ، حتى ولو لم تفح منه رائحة السمك أو رائحة الدم .

وقال الشيخ :

– «آي ، غالانوس ! هيّا ، غالانوس !»

وأقبلا ، ولكنهما لم يقبلا كما أقبل القرش الاول – الـ «ماكو» . فقد استدار أحدهما وغاب عن العيان تحت القارب . وكان في ميسور السيخ ان يحسّ بالقارب يهتزّ فيما هو ينهش السمكة . وراقب الآخر ، بعينيه الضيقتين الصفراوين ، الرجل العجوز ، ثم انقضّ فجأةً ، فاغر الفكّين ، على السمكة ، فنهشها حيث نُهشت من قبل . وبدا الخط الخياليّ واضحاً من قمة

رأسه الأسمر إلى حيث يتصل الدماغ بالحبل الشوكي . وفي تلك النقطة بالذات طعن الشيخ القرش بالمدية المشدودة إلى المجذاف . ثم انه سحبها وأهوى بها من جديد على عيني القرش الصفراوين الشبيهتين بأعين الهررة . فما كان من القرش إلا ان خلّى السمكة ، وغار في الماء ، مزدرداً ما نهشه منها ، ومات .

وكان القارب ما يزال يرتعد بسبب من هجمات القرش الآخر على السمكة . وخلى الشيخُ الحبلَ المعدّل لاتجاه الشراع لكي يدور الزورق بالعرض ، ويخرج القرش من تحته . ولم يكد الشيخ يرى إلى القرش حتى انحنى فوق جانب الزورق وطعنه بمديته . ولكنه لم يُصب منه غير لحمه ، بسبب من قساوة الجلد على نحو جعل المدية لا تنفذ إلى جسد القرش إلاّ بشق النفس . ولم تؤلم الطعنة يدي الشيخ وحسب ، بل آلمت كتفه أيضاً . ولكن القرش ارتفع في سرعة مطلعاً رأسه من الماء . ولم يكد أنف القرش يخرج من الماء ويستقر على السمكة حتى طعنه الشيخ في أمّ رأسه المسطح . ثم ان الشيخ انتزع المدية وأغمدها في رأس القرش حيث طعنه أول مرة ولكن القرش تشبّث بالسمكة ، مطبقاً فكيه على لحمها . فطعنه الشيخ في عينه اليسرى . ومع ذلك فقد أبى القرش ان يتزحزح .

وقال الرجل العجوز :

– «ألا يكفيك هذا ؟»

وأغمد المدية بين الفقار والدماغ ، فشقّت طريقها في سهولة

ويسر . وأحسّ بالغضروف ينفطر . وقلبَ المجذاف وغيّب النصل بين فكّي القرش لكي يفتحهما . ثم أدار النصل حول نفسه عدة مرات . حتى إذا خلى القرش السمكة وغار في الماء قال الشيخ :

– «أغربْ من هنا . غصْ إلى عمق ميل كامل . إذهب والقَ صديقك ، ومن يدري ؟ فلعلها أمك» .

ومسح الشيخ شفرة مديته ، ووضع المجذاف جانباً . ثم انه أمسك بالخيط المعدّل لاتجاه الشراع ، فانتفخ الشراع ، واستقام الزورق في طريقه السويّ .

وقال في صوت عال :

– «لقد أكلت الاقراش نصف السمكة على الأقل ، – الربع الذي يضمّ أحسن لحمها . ليت ذلك كان حلماً ، وليتني لم أوقع هذا السيف في شركي ! ان هذا يحزنني أيتها السمكة . إنه يفسد كل ما عملتهُ» .

وصمت ، ولم يعد راغباً في النظر إلى السمكة . كانت دماؤها قد استنزفت ، وكان الماء يغسلها من أقطارها فهي تبدو في مثل لون الفضة التي تُطلى بها ظهور المرايا . وكانت العصائب التي تطوّقها ما تزال بادية للعيان .

ثم قال :

– «ما كان ينبغي لي ان أذهب إلى هذا الحد ، أيتها السمكة . ان ذلك لم يكن لا في مصلحتي ولا في مصلحتكِ . أنا آسف ، أيتها السمكة !»

وخاطب نفسه قـائلاً : والآن ، ألق نظرة على وثـاق المـديـة لتستيقن انه ينقطع . ثم أوْلِ يديك بعض الاهتمام لأن ثمة أقراشـاً أخرى تُقبل من غير ريب .

وقـال بعـد أن فحص الـوثـاق الـذي يشـدّ المـديـة إلى عقب الجذاف :

- «لشدّ ما أتمنى لو كان عندي حجر أشحذ عليه المدية . كان ينبغي ان آتي بحجر» .

وفكّر : كان يتعين عليك ان تأتي بأشيـاء كثيرة ، ولكنـك لم تأت بها أيها الرجل العجوز . وليس هذا هو وقت التفكير في مـا يعوزك . فكّر في الـذي تستطيع أن تفعلـه بمـا في حـوزتـك من أسباب .

وقال في صوت عال :

- «أوه ، كفـّ عن إسـداء هـذه النصـائـح إليّ . لقـد مللت ذلك» .

ووضع مقبض السّكان تحت ذراعه وغمس كلتا يديـه في المـاء بينما كان القارب يمضي في سبيله .

وقال :

- «الله وحـــده يعلم كم انتزع القرش الأخير من لحم السمكـة ولكنها أمست أخفـّ من ذي قبل بكثير» .

ولم يكن راغبـاً في أن يفكر في التشويـه الـذي أصـاب الجزء الأدنى من السمكة . فقد عرف ان كل زلزلة أثارهـا القرش كانت

تعني قطعةً من لحم السيف تُنْهَشُ وتزدرد ، وان السيف قد ترك لجميع أقراش البحر أثراً لاحباً كالجادة يشقّ صفحة الماء .

وقال في ذات نفسه : هذه السمكة تستطيع ان تملأ جوف الانسان طوال الشتاء . ولكنْ دع عنك التفكير في ذلك . كلّ ما عليك أن تعمله هو أن تستريح ، وان تحاول إعداد يديك للدفاع عما تبقّى من السمكة . إن رائحة الدم المنبعث من يديّ ليست شيئًا بالقياس إلى هذه الرائحة التي تفوح من الماء . وإلى هذا ، فان الدم ما عاد يسيل منهما كثيراً . وليس ثمة جرحٌ واحد ذو خطر . وجريان الدم قد يقي اليد اليسرى من التشنج .

وفكّر : ما الذي أستطيع أن أفكر فيه الآن ؟ لا شيء . يجب ان لا أفكر في شيء ، وان انتظر الاقراش التالية . لشد ما أتمنى لو كان حلماً حقاً ! ولكن من يدري ؟ فقد كان من الممكن ان يسفر عن نتيجة حسنة .

وكان القرش التالي مفرداً . وكان ذا رأس عريض شبيه بالمسحاة . وانقضّ على فريسته كما ينقض حنزير على مذوده لو كان للحنزير شدق عريض يمكنك أن تضع رأسك فيه . وتركه الشيخ ينهش لحم السمكة ثم غيّب مديته المشدودة إلى المجذاف في ذماغه . ولكن القرش ارتدّ الى الوراء وهو يعاني سكرات الموت فانكسر نصل المدية .

وانصرف الشيخ إلى ادارة السكان . إنه لم يلقِ ولو نظرة واحدة على القرش الضخم الذي راح يغوص في الماء ، وقد بدا في

حجمه الطبيعي ، بادىء الامر ، ليغدو بعدُ صغيراً فضئيلاً . كان ذلك المشهد يفتن الشيخ دائماً ، ولكنه لم يبال به ، الآن ، البتة .

وقال :

– «لم يبق عندي غير المحجن . ولكنه لن يكون ذا غَناء . وعندي الجذافان ، ومقبض السكّان ، والهراوة القصيرة» .

وخاطب نفسه : الآن غُلبت . أنا أعلى سناً من ان اقرع الاقراش ؛ بالهراوة ، حتى الموت . ولكني سوف أكافح ما دام عندي الجذافان ، والهراوة الصغيرة ، ومقبض السكان .

ووضع يديه في الماء ، كرة أخرى ، لكي ينقعهما . وكان الاصيل يؤذن بالانقضاء . ولم تقع عينا الشيخ على شيء ، غير الماء والسماء . وهبّت الريح ، وصار في ميسوره أن يعلل النفس برؤية اليابسة عما قليل .

وقال :

– «انت متعب أيها الرجل العجوز! أنت متعَب حتى العظم !»

ولم تهاجمه الاقراش كرةً أخرى إلا بعد ان جنحت الشمس إلى المغيب .

وبصر الشيخ بزعنفتين سمراوين تتخذان سبيلهما عبر الأثر العريض الذي تركته السمكة في الماء . ومن عجب ان هذين القرشين لم يضربا في البحر التماساً للراحة . بل انطلقا نحو القارب مباشرةً ، سابحين جنباً إلى جنب .

وثبّت الشيخ مقبض السكّان . وأوثق حبل الشراع ، وانتزع المراوة من تحت مؤخر الزورق . وكانت عبارةً عن مقبض مجذاف مكسور نُشر حتى أمسى طوله نحواً من قدمين ونصف . ولم يكن بقادر على أن يصطنعها في فعالية إلا إذا أمسكها بيد واحدة ، بسبب من شكل مُمسكها . وفي حرم ، أطبق الشيخ بيده اليمنى عليها ، وانحَنى فوقها وأنشأ يراقب اندفاع القرشين . كانا كلاهما من نوع غالانوس .

وخاطب نفسه : يجب ان أدع اولهما يُنشب أنيابه في السمكة ثم أضربه على أنفه أو عبر قمة رأسه .

واندفع القرشان نحو السمكة ، في آن معاً . حتى إذا رأى أقربهما يفتح ويطبقهما على بطن السمكة الفضي ، رفع المراوة ثم أهوى بها ثقيلةً صاخبةً على أم رأس القرش العريض . وواجهت المراوةُ ضرباً من المقاومة المطاطية المرنة ، ولكن الشيخ أحسّ في الوقت نفسه بصلابة العظم . وفيما القرش ينأى عن السمكة ، ضربه الشيخ كرةً أخرى على أنفه .

وكان القرش الآخر قد انقضّ على السمكة وارتدّ عنها مرات عديدة ، وكان قد انقلب اليها الآن واسعَ الشدقين . لقد رأى الشيخ إلى قطع اللحم – لحم السمكة – تسيل بيضاء من زاوية فمه فيما هو ينقضّ على السمكة وينشب أنيابه فيها . ورفع الشيخ المراوة وأهوى بها عليه ، ولكنه لم يصب غير رأسه . ونظر اليه القرش . وانتزع قطعة اللحم التي كان قد قطعها . وأهوى الشيخ

بهراوته عليه فيما كان ينسلّ ليبتلع تلك القطعة ، ولكنه لم يصب هذه المرة أيضاً غير الطبقة المطاطية الكثيفة من الرأس .

وقال الرجل العجوز :

- «تعال أيها القرش ! تعال مرةً أخرى !»

وأقبل القرش في اندفاعه ، فاستقبله الشيخ بهراوته حين أطبق فكّيه . لقد رفع الهراوة أعلى ما يستطيع أن يرفعها وأهوى بها قويةً قاضية . وهذه المرة استشعر الشيخ انه أصاب العظم عند مستقرّ الدماغ . ثم سدّد إلى ذلك الموضع عينه ضربةً أخرى ، فيما انتزع القرشُ الخدِر قطعة اللحم ونأى عن السمكة .

وقال الشيخ في ذات نفسه : قد يعود . ولكن أياً من القرشين لم يبرز للعيان . ثم رأى واحداً يحوّم فوق سطح الماء . ولم يرّ زعنفة الآخر .

وفكّر : لم يكن في وسعي أن أتوقع قتلها . فقد تغير الحال الآن . ولكني اصبتها كليها إصابة خطيرةً . ولن يستشعر أيّ منها نشاطاً منذ اليوم . ولو قد كان في إمكاني ان أضربها بكلتا يديّ بأحد النبابيت إذن لقتلت اولها من غير ريب ، حتى في هذه اللحظة - كذلك قال في ذات نفسه .

ولم يرغب في النظر إلى السمكة . لقد عرف ان الاقراش قد التهمت نصفها . وكانت الشمس قد جنحت إلى الغروب فيما هو منهمك في قتال القرشين .

وقال :

– «سوف يهبط الليل وشيكاً . وعندئذ لا بُدّ ان أرى أضواء هافانا . وإذا كنتُ قد أوغلت في المضي نحو الشرق فسوف أرى أضواء شاطىء من الشواطىء الجديدة» .

وفكّر : ينبغي ان لا اوغل في الابتعاد عن الشاطيء منذ اليوم . وأرجو ان لا يقلقوا عليّ هناك . إن الغلام وحده هو الذي سوف يقلق عليّ ، طبعاً . ولكني واثق من انه لن يقطع الرجاء . وكثير من الصيادين الشيوخ سوف يقلقون . وكثيرٌ غيرهم أيضاً . أنا أحيا في بلدة طيّبة .

ولم يعد في ميسوره ان يخاطب السمكة بعد الآن لأن السمكة كانت قد شُوّهت تشويهاً فظيعاً . وفجأةً ، طافت برأسه فكرة . وقال :

– «يا بقيةً من سمكة ! يا سمكةً كُنْتِها ! أنا آسف لإيغالي في الابتعاد عن الشاطىء . لقد حطمني ذلك وحطمكِ . ولكننا قتلنا كثيراً من الاقراش . انا وأنتِ ، ودمّرنا كثيراً منها . كم قرشاً قتلتِ في حياتك ايتها السمكة العجوز ؟ انت لم تحملي ذلك الرمح على رأسكِ لغير ما سبب !»

وأحبَّ ان يفكر في السمكة وفي ما تستطيع ان تفعله بأحد الاقراش لو كانت تسبح في حرية . وفكّر : كان ينبغي أن اقتطع رمحها ذاك وأحارب الاقراش به . ولكن لم يكن ثمة فأس ، وكنت قد فقدت مديتي .

آه لو استطعت ان أفعل ذلك ! آه لو استطعت ان اثبّته إلى

عقب احدى المجذافين ! أيّ سلاح هائل كنت خليقاً بأن افوز به ! وإذن لكنا جديرين ، أنا وأنتِ ، بأن نقاتلهم معاً . ما الذي سوف تفعلينه الآن إذا اقبلوا في الليل ؟ ما الذي تستطعين أن تفعليه .

وقال :

– «القتال ! سوف اقاتلهم حتى الموت !»

وإذ غمره الظلام ، ولم تقع عينه على ايما وهج ولا أضواء ، وإذ أمسى متوحداً لا رفيق له غير الريح وغير اندفاعه الشراع المطردة ؛ استشعر وكأنه قد أسلم الروح . وشبك يديه ، وجسّ راحتيها ، فاذا هما غير خدرتين على الاطلاق . ولم يكن محتاجاً ، لكي يُجري الحياة فيهما ، إلى أكثر من فتحهما وإغلاقهما على نحو موصول . وأسند ظهره إلى مؤخر القارب ، وأدرك انه ليس ميتاً . لقد أنبأته بذلك كتفاه .

وفكّر : هناك جميع تلك الصلوات التي وعدتُ بتلاوتها إذا ما فزت بالسمكة . ولكني من الاعياء بمحلّ لا يمكنني من ان اتلوها الآن . من الأفضل ان آتي بالكيس وأضعه فوق منكبيّ .

واستلقى في مؤخر القارب نصف استلقاءة ، وأمسك بالسكان ، وأنشأ يراقب الافق علّه يقع على طلائع الضوء . وقال في ذات نفسه : لقد بقي من السمكة نصفها ، فعسى ان يكون من حظي ان أبلغ به شاطىء السلامة . انا استحق شيئًا من الحظ . ثم أردف في الحال : لا . لقد انتهكتَ حرمة حظك حين

اوغلتَ في الابتعاد عن الشاطىء هذا الإيغال كله .

وقال في صوت عالٍ :

– «لا تكن أحمق ! حاذِرْ ان تستسلم للنعاس ، وأدِرِ السكان . فقد يحالفك الحظ بعد قليل» .

وفكّر : أود لو أشتري شيئًا من لحمها إذ ما عرضوها للبيع في مكان ما .

وسأل نفسه : ولكن بِمَ اشتري تلك القطعة من لحمها ؟ هل استطيع ان اشتريها بحربون ضائع ، ومدية مكسورة ، ويدَين واهنتين ؟!

وقال في ذات نفسه : ولم لا ؟ لقد حاولتَ ان تشتريها بأربعة وثمانين يوماً قضيتها في عرض البحر . بل لقد كادوا يبيعونها لك ايضاً .

وفكّر : يجب ان لا افكر في هذا الهراء . الحظ شيء يأتي في صور متعددة . ومن ذا الذي يستطيع أن يتبنه ؟ وعلى أية حال ، فاذا ما جاءني الحظ ، في صورة ما ، فسوف أفعل كل ما يُطلب اليّ فعله . انا اتمنى اشياء كثيرة جداً . ولكن هذا هو الشيء الذي أتمناه الآن . وحاول ان يتخذ وضعا يمكنه من ادارة السّكان على نحو أدعى إلى الراحة . وكان في الألم الذي أورثته إياه هذه الحركة ما اكد له انه ليس بميت .

وحوالي الساعة العاشرة ليلاً ، في أغلب الظن ، بَصُرَ بهالة الانوار المنعكسة من المدينة على صفحة الماء . وكانت أول امرها

اشبه شيء بذلك الضوء الباهت الـذي ينتشر في السماء قبل بزوغ القمر . ثم انتهت الى ان تصبح ثـاقبـة تخترق وجـه المحيـط الـذي طفقت امواجـه تتـلاطم بعـد ان اشتـدت الريـح . وقـاد الشيـخ زورقه ضمن نطاق الهالة. وقدّر انه سوف يبلغ حـاشيـة التيـار في وقت قريب .

وقــال في ذات نفســه : انتهى الآن كل شيء . وأغلب الظن ان الاقراش سوف تهـاجمني من جـديـد . ولكن أي شيء يستطيع المرء ان يفعله بها ، في غمرة الظلام ، وهو اعزل من السلاح ؟

كان متصلب الاوصال ، مغيظاً . وكان برد الليل قد أثار كل جراحات جسده المرهق وآالامه . وخاطب نفسه قائلاً : ارجو ان لا أضطر الى استئنــاف القتــال . ارجـو من شغـاف قلبي ان لا أضطر الى استئناف القتال !

ولكن ما ان انتصف الليل حتى خاض غمـار معركـة أخرى . وأدرك الشيخ ان القتـال هـذه المرة عبث لا طـائل تحتـه . فقـد انـدفع نحوه من الاقراش قطيـعٌ كامـل ، ولم يكن في ميسـوره ان يرى الخطوط التي احدثتها زعانف الاقراش في المـاء وغير تـألقهـا الفوسفوري وهي تنقضّ على السمكة . وانهـال الشيخ على رؤوس الاقراش ضرباً ، وسمع فكوكها تُطبق مدوّية ، وأحسّ بـالقـارب يتأرجح فوق ظهورها . وناضل الشيخ ، في يأس ، ضد أعـداء لم يكن قادراً على ان يراهـا ، ولكنـه يحسّ بهـا ويسمعهـا . وفجـأة استشعر شيئًا ينتزع المراوة ، فضاعت من يديه .

وهنا نتر الشيخ مقبض السكان وراح يضرب به الاقراش ، رافعاً اياه بكلتا يديه ، مُهوياً به مرة بعد مرة . ولكن الاقراش كانت قد انتهت الى القيدوم ، فهي تنقضّ على السمكة وحداناً وزرافات ، وتنهش اجزاء من لحمها كانت تراها تتوهج تحت الماء وهي ترتدّ منقضّة على السمكة من جديد .

وأخيراً انقضّ احد الاقراش على رأس السمكة نفسها . وأدرك الشيخ ان كل شيء قد انتهى . فرفع مقبض السكان وأهوى به على رأس القرش ، وكانت كثافة رأس السمكة قد استعصت على فكي القرش فهو لا يستطيع انتزاع شيء منه . وعاود الشيخ ضرب القرش مرةً ومرةً ومرةً . وانكسر مقبض السكان . فواصل ضرب القرش بعقب المقبض المكسور . وأحسّ بهذا العقب ينفذ الى رأس القرش ، فأدرك أنه حادّ فعاود ضرب القرش به . وعندئذ نأى القرش وأعرض بجانبه ، وتلوّى في سكرة الموت . وكان ذلك آخر قرش انقضّ على السمكة من اقراش القطيع ، اذ لم يبق من تلك السمكة ما تستطيع الاقراش ان تأكله .

كان الشيخ يلهث لهاثاً شديداً ، وكان مذاق غريب يملأ فمه . انه مذاق نحاسيّ وحلو .. ولقد خافه الشيخ بادىء الأمر ، ولكنه لم يكن قوياً ذا حطر .

وبصق الشيخ في المحيط وقال :

– «كلوا هذا ، ايها الاقراش ، واحلموا انكم قتلتم رجلاً !»

لقد أدرك الآن انه هُزم هزيمة نهائية لن تقوم له بعدها

قائمة . فانقلب الى مؤخر القارب فوجد ان طرف المقبض المثلوم يلج في تجويف السّكان على نحو يمكنه من قيادة الزورق . ثم انه طوّق كتفيه بالكيس واتخذ سبيله نحو اليابسة . لقد غدا القارب خفيفاً رشيق الحركة ، ولم تراود الشيخ أيما فكرة ، او يخالجه ايما شعور . لقد تخطى الآن كل شيء ، فهو لا يفكر الاّ في شيء واحد : ان يبلغ الشاطىء على خير وجه يستطيعه وأذكاه . وفي موهن من الليل كانت الاقراش تنقضّ على هيكل السمكة العظميّ كما يتهافت الفقراء على بقايا المائدة . ولمّ يبال الشيخ بهم . انه لم يبال بشيء غير ادارة السكان . بيد انه لاحظ رشاقة القارب وسرعته بعد ان تخفف من معظم الحمل الذي كان يثقل خطاه . وقال في ذات نفسه : انه ما زال سليماً . ولم يُصب أيّ شيء فيه بسوء ، باستثناء مقبض السكان . ومن اليسير عليّ ان استبدل به غيره .

وأحسّ انه انتهى ، الآن ، الى مجرى التيار ، وصار في ميسوره ان يرى الى اضواء الشواطىء المتناثرة على طول الساحل . لقد عرف أين هو الآن ، ولم يعد الوصول الى البيت امراً عسيراً .

وخاطب نفسه : الريح صديقتنا على اية حال . ثم اردف : اعني في بعض الاحيان . وكذلك البحر الكبير بما فيه من اصدقاء لنا وأعدائنا . وفكّر : والسرير ايضاً . السرير صديقي . لا شيء غير السرير . لا ريب في ان الاستلقاء عليه شيء عظيم .

وقال في ذات نفسه : لشدّ ما تبدو الاشياء سهلة حين يُهزم المرء . انا ما كنت احسب ، في يوم من الايام ، انها سهلة الى هذا الحد . ولكن ما الذي انتهى بك الى الهزيمة ؟

وأجاب في صوت عالٍ :

– «لا شيء . كل ما في الأمر اني امعنت في الابتعاد عن الشاطىء» .

حتى اذا دخل المرفأ الصغير كانت اضواء «السطيحة» مطفأة ، فأدرك ان القوم قد آووا الى مضاجعهم . وكانت الريح قد هبّت رُخاء ، بادىء الأمر ، ثم اخذت في الاشتداد فهي الآن قوية عاصفة . ومع ذلك فقد كان السكون يخيم على المرفأ ، فتقدّم بقاربه حتى مجتمع الالواح الخشبية تحت الصخور . ولم يكن ثمة من يساعده فدفع القارب الى أبعد ما استطاع ان يدفعه . ثم غادره وشدّه الى احدى الصخور . ونزع السارية ، وطوى الشراع وأوثقه بها . ثم انه تنكب السارية ، وشرع يصعّد الى الشاطىء . وفي تلك اللحظة فقط ادرك مبلغ الاعياء الذي استبدّ به . ووقف لحظة . والتفت الى الوراء فرأى ذنب السمكة الكبير – على ضوء مصباح الشارع – وقد ارتفع الى ما فوق مقدّم الزورق بكثير . وبَصُرَ بعمودها الفقري وكأنه خيط ابيض عار ، وبكتلة الرأس الداكنة ، وبالرمح الناتىء ، وبذلك العري المترامي ما بين رأس السمكة وذنبها .

وواصل تصعيده . حتى اذا بلغ القمة سقط وظلّ منطرحاً

على الارض ، برهة من الزمن ، والسارية معترضة كتفه . وحاول ان ينهض ، ولكنه اخفق ، فلبث هناك والسارية على كتفه ، وانشأ ينظر الى الطريق . وفي الجانب الآخر مرّت هرة تسعى في مناكبها . وراقبها الرجل العجوز ، ثم اجتزأ بمراقبة الطريق .

وأخيراً أنزل السارية عن منكبه ونهض . ثم رفع السارية وتنكبّها واستأنف السير . ولقد اضطر الى ان يقعد خمس مرات على الارض قبل ان يبلغ كوخه .

حتى اذا انتهى اليه اسند السارية الى الجدار . وفي غمرة الظلام التمس زجاجة ماء ، وشرب جرعةً . ثم استلقى على السرير رافعاً البطانية حتى كتفيه ، وسوّاها حول قدميه وظهره . ونام على وجهه فوق الصحف القديمة ، ويداه منشورتان الى أعلى وراحتاه تواجهان السقف .

وكان نائماً حين اطلّ الغلام ، صباح اليوم التالي ، من شق الباب . كانت الريح عاصفةً الى حد جعل من المتعذر على المراكب ان تغادر الشاطيء . وهكذا استرسل الغلام في نومه ذلك اليوم ، ثم اقبل على كوخ الرجل العجوز ، فِعْله كلّ صباح . وفي الحال انحنى الغلام فوق الشيخ لكي يستيقن انه ما يزال يتنفس . ثم انه رأى يدي الرجل العجوز وأنشأ ينشج . وسارع الى مغادرة الكوخ ، في هدوء كثير ، ليحمل اليه شيئًا من القهوة . وطوال الطريق كانت الدموع تتحدر على خديه .

وكان كثير من الصيادين قد احتشدوا حول القارب وراحوا ينظرون الى ما كان مشدوداً الى جانبه . وكان واحد منهم قد خوّض في الماء ، راداً بنطلونه الى أعلى ، وأخذ يقيس طول السمكة بحبل .

ولم يمضِ الغلام حتى ذلك المكان . لقد قصد الى هناك من قبل ، وكان قد عهد الى احد الصيادين في حراسة القارب .

وصاح أحد الصيادين :

– «كيف حاله ؟»

فأجابه الغلام صائحاً :

– «إنه نائم» . ولم يبالِ الغلام ان يلاحظ الصيادون دموعه . «ارجو ان لا يزعجه احد» .

وصاح الصياد الذي كان يقيس طول السمكة :

– «كان طولها ثمانية عشر قدماً من الانف حتى الذنب» .

فقال الغلام :

– «انا لا استغرب ذلك» .

ومضى الى «السطيحة» وطلب ملء صفيحة من القهوة .

– «لتكن ساخنةً وافرة الحليب والسكر» .

– «هل تريد شيئًا آخر ؟»

– «لا . سوف ارى بعد ذلك ما الذي يستطيع ان يأكله» .

وقال صاحب «السطيحة» :

– «لقد كانت سمكة عظيمة حقاً ! ان احداً لم يرَ مثلها من

قبل . وأنت ايضاً ، اصطدتَ امسِ سمكتين رائعتين» .

فقال الغلام :

– «لست ابالي بذلك !» وأنشأ ينتحب من جديد .

وسأله صاحب المقهى :

– «الا تريد ان تشرب شيئًا ؟»

فقال الغلام :

– «لا . قل لهم ان لا يزعجوا سانتياغو . سوف ارجع بعد قليل» .

– «إحمل اليه شديد تأثري لما اصابه» .

فقال الغلام :

– «شكراً»

ومضى الغلام بصفيحة القهوة الساخنة الى كوخ الشيخ ، وقعد الى جانبه حتى أفاق . وبدا الشيخ مرة وكأنه استيقظ ، ولكنه ما لبث ان غرق في نوم عميق . وهنا اجتاز الغلام الطريق لكي يستعير بعض الخشب يسخّن به القهوة .

وأخيراً افاق الرجل العجوز . فقال الغلام :

– «إبقَ حيث انت . إشرب هذا» . وصبَّ شيئًا من القهوة في القدح .

وتناول الشيخ القدح وشرب ما فيه .

وقال :

– «لقد هزموني يا مانولين . لقد هزموني حقاً» .

- «ليست هي التي هـزمتــك ، على كل حــال . ليست السمكة» .

- «لا . هذا صحيح . لقد هُزمتُ في ما بعد» .

- «بيـدريكـو يحرس القـارب والعـدّة . مـا الـذي تريـد ان تفعله بالرأس» .

- «دع بيـدريكـو يقطّعـة إربـاً إربـاً ويستعملـه في أشراك الصيد» .

- «والرمح ؟»

- «إحتفظْ به اذا شئت» .

- «يسعـدني ذلـك . والآن ، ينبغي ان نتفـاهم على سـائر الاشياء» .

- «هل بحثوا عني ؟»

- «طبعاً بواسطة حرس السواحل وبالطائرات» .

فقال الشيخ :

- «المحيط كبير جداً ، والقارب صغير لا يُرى في سهولة» .

ولاحظ المتعة البالغة التي تتم للمرء حين يجـد امـامـه شخصـاً يحدّثه ، بدلاً من ان يخاطب نفسه أو يخـاطب البحر ليس غير . وأضاف : «لقد افتقدتك في هذه المعركة . ما الذي اصطدته ؟»

- «واحدةً في اليوم الاول . وواحدة في اليوم الثاني . واثنتين في اليوم الثالث» .

- «حسن جداً» .

– «سوف نعاود الصيد معاً ، منذ اليوم» .

– «أنا لستُ محظوظاً . أنا لم اعد محظوظاً على الاطلاق» .

– «قاتل الله الحظ ! سوف اجلب الحظ معي» .

– «وما الذي ستقوله اسرتك ؟»

– «انا لا ابالي . لقد اصطدت امس سمكتين ولكننا سوف نصطاد معاً بعد اليوم ، فلا تزال ثمة اشياء كثيرة ينبغي ان اتعلمها» .

– «يجب انْ نصنع رمحاً ثاقباً ونصطحبه دائماً في الزورق . في استطاعتك ان تصنع النصل من طرف نابضٍ (راسّور) من نوابض «فورد» عتيقة . وفي ميسورنا ان نشحذه في غواناباكوا . وينبغي ان يكون حاداً وغير ممزوج بعناصر غريبة لكي لا ينكسر . لقد انكسرت مديتي» .

– «سوف آتي بمدية اخرى ، وأشحذ نابض السيارة . كم يوماً تستمر هذه الرياح العاصفة في ما تظن ؟»

– «ربما ثلاثة ايام . وربما اكثر» .

فقال الغلام :

– «اذن فسوف اجد مجالاً واسعاً لإعداد كل شيء . بينما تنصرف انت الى العناية بيديك» .

– «أوه ، انا اعرف جيداً كيف اعالجها . في الليلة البارحة نفثتُ شيئًا غريباً ، وشعرت بشيء يطقّ في صدري» .

فقال الغلام :

– «لا تنسَ ان تعتني بهذا ايضاً . إستلق في فراشك . ايها الرجل العجوز ، ولسوف احمل اليك قميصك النظيف ، وشيئاً تأكله» .

وقال الشيخ :

– «إحمل اليّ اياً من الصحف التي صدرت خلال غيبتي في البحر» .

– «يجب ان تستعيد نشاطك في سرعة لأن هناك اشياء كثيرة يجب ان اتعلمها ، وفي استطاعتك ان تعلّمني كل شيء . لقد تعذبتَ كثيراً ، أليس كذلك ؟»

فقال الشيخ :

– «أجل . كثيراً» .

فقال الغلام :

– «سوف آتيك بالطعام والصحف . إسترح جيداً ايها الرجل العجوز . سوف اقصد الى الصيدلية وأشتري لك مرهماً تداوي به يديك» .

– «لا تنسَ ان تخبر بيدريكو ان رأس السمكة له» .

– «لا . لن انسى» .

وحين غادر الغلام الكوخ وهبط الطريق الرديئة المعبدة بالصخور المرجانية كانت العبرات تتحدّر على خديه كرةً اخرى .

وذلك الأصيل وَفَدت على «السطيحة» طائفة من السياح . وفيما كانت إحدى السيدات تتأمل الشاطىء الحافل بصفائح الجعة

الفارغة والأسماك الميتة ، رأت عموداً فقرياً ضخماً طويلاً أبيض ينتهي بذنب هائل يرتفع ويتمايل مع المدّ ، بينما كانت الريح الشرقية تثير البحر عند مدخل المرفأ .

والتفتت السيدة إلى أحد النُدُل وسألته مشيرةً إلى عمود السمكة الفقري العظيم الذي انتهى إلى أن يصبح الآن مجرد نفاية تنتظر أن يحملها المدّ إلى عرض البحر :

– «ما هذا ؟»

فقال النادل ، وهو يحاول أن يشرح بلغته الكوبانية ما حدث :

– «تيبورون Tiburon . قرش» .

وحسبتْه يعني أن العمود الفقريّ الطويل كان لأحد الأقراش . فقالت :

– «ما كنت أعرف أن للأقراش مثل هذه الأذناب الجميلة الرائعة الشكل !»

وقال زميلها الذي يرافقها :

– «وأنا كذلك ما كنت أعرف !»

وهناك ، في الكوخ ، القائم في أعلى الطريق ، كان الشيخ قد استسلم للرقاد ، كرةً أخرى ، مُكبّاً بوجهه على الصحف القديمة – شأنه في المرة الأولى – وقد قعد الغلام قربه وأنشأ يرنو اليه . كان الشيخ يحلم بالأسُود .

ثلـوُج كليمانجَـارُو

كليمانجارو جبل يبلغ ارتفاعه 19710 اقدام ، تُكلّل هامتَهُ الثلوج ، ويقال انه أعلى جبال افريقية قاطبةً . وتُعرف قمته الغربية بـ « مازي نغاجي نغي » Masai Ngàje Ngài أي بيت الله . وعلى مقربة من هذه القمة الغربيةِ هيكلٌ فهدٍ جافّ يعلوه الجليد . إن أحداً لمّا يشرَحْ ما الذي كان الفهد يلتمسه عند تلك القمة المرتفعة .

– «الأمر العجيب انها لا تنطوي على ألم .» قال ذلك ثم أضاف : «وهذا ما يجعل المرء يدرك انها قد بدأت .»

– «أحقّ ما تقول ؟»

– «من غير ريب . ولكني آسف الى حد مروّع لهذه الرائحة . لا شك في انها تزعجكِ .»

– «لا تقل ذلك ! أرجوك ، لا تقل ذلك !»

وقال :

– «انظري اليهنّ . ليت شعري ، ما الذي يجذبهن على هذه الشاكلة : البصر أم الرائحة ؟»

كان سرير الترحّل الذي استلقى عليه الرجل منبسطاً تحت

شجرة ميموزا وارفة الظلال . وحين امتدّ بصره في الظل إلى وهج السهل الذي يُعشي العيون وقع على ثلاثة طيور ضخمة جاثمة على نحوٍ يعوزه الاحتشام ، بينا أقلعت في الفضاء دزينة أخرى من الطيور كانت تُلقي ، فيا هي تمضي لسبيلها ، ظلالاً رشيقة الحركة .

وقال :

– منذ أن تعطلت السيارة الشاحنة وهنّ هنا . وهذا أول يوم رأيت فيه بعضهنّ يحطّ على الأرض . لقد راقبتُ طريقتهن في الطيران ، مراقبةً دقيقة بادئ الأمر ، لعلي أن أفيد من ذلك في قصة أكتبها ذات يوم . إن ذلك ليبدو ، في نظري ، شيئاً مضحكاً الآن .»

فقالت :

– «أرجو أن تكفّ عن ذلك .»

فقال :

– «أنا أتحدث ليس غير . إن الخطب ليهون كثيراً حين أتكلم ، ولكني لا أريد أن أزعجكِ .»

فقالت :

– «أنت تعلم جيداً ان ذلك لا يزعجني . إن الذي يورثني عصبيةً بالغة هو مجرّد عجزي عن القيام بأيما عمل . وأعتقد أن في ميسورنا أن نهوّن هذا البلاء ، جهدَ طاقتنا ، ريثما تُقبل الطائرة .»

– «أو ربّما لا تُقبل .»

– «أرجوك . قل لي مـا الـذي أستطيع أن أعملـه . يجب أن يكون ثمة شيء ما ، أستطيع أن أعمله .»

فقال :

– «في استطـاعتـكِ أن تبتري رجلي ، فقـد يضع ذلـك حـداً لها ، على الرغم من اني أشك في هذا . وفي استطاعتك أن تطلقي عليّ النار . لقد أصبحتِ بـارعة في إصـابـة الهـدف ، الآن . أنـا الذي علّمتكِ الرماية ، أليس هذا صحيحاً ؟»

– «لا تتحـدّثْ هكـذا ، أتوسّل اليـك . ألا تودّ أن أقرأ لـك شيئاً ما ؟»

– «تقرئين ماذا ؟»

– «أيّ شيء في حقيبة الكتب لمّا نقرأه بعد .»

فقال :

– «أنـا لا أستطيـع أن أصغي للتـلاوة . التحـدث هـو أيسر الأشياء عليّ . نحن نتخاصم ، وهذا ما يجعل الوقت ينقضي .»

– «أنـا لا أخـاصم .. أنـا لم أرغب في الخصام طـوال عمري . فلنُقلِعْ عن الخصـام منـذ اليـوم . مهما نرفـزنـا واستبـدّتْ بنـا العصبيـة . لعلهم أن يرجعوا اليوم بسيـارةٍ شـاحنـةٍ أخرى . لعل الطائرة أن تُقبل .»

فقال الرجل :

– أنـا لا أريـد أن أتحرك . ليس في الانتقـال ، الآن ، أيّمـا

غَناء . باستثناء انه يجعل الأشياء أيسر بالنسبة اليكِ .»
– «هذا جبن منك .»
– «ألا تستطيعين أن تدعي المرء يموت ، بأقصى ما يستطيع من الهدوء ، من غير أن تلصقي به أبشع النعوت ؟ أيّ فائدة تُرجى من تعنيفي ؟»
– «أنك لن تموت .»
– «لا تكوني حمقاء . أنا أحتَضَرُ الآن . سلي أبناء الزنا هؤلاء .»

ونظر إلى حيث كانت الطيور الضخمة القذرة جاثمةً ، وقد غرقت رؤوسها العارية في الريش المحدودب . وأسفّ طائرٌ رابع . وانشأ يعدو خفيفاً رشيقاً ، ليتخذ سبيله بعدُ متثاقلاً نحو ذوي قرباه .

– «إنهن يَحُمْنَ حول المعسكرات جميعاً . ولكننا لا نراهن أبداً . إن المرء لا يمكن أن يموت إذا لم يستسلم .»
– «أين قرأتِ هذا ؟ أيّ مجنونة لعينة أنتِ !»
– «في استطاعتك أن تفكر في شخص آخر .»
فقال :
– «أوه ، يا الهي ! لقد كانت هذه صناعتي ؟!»

ثم انه اضطجع ، وأخلد إلى السكون برهةً ، ونظر عبر التماعات الحرارة فوق السهل ، إلى حافة مجتمع العُلّيق . كان ثمة بضعة غزلان بدت ضئيلة بيضاء تجاه الصّفرة ، وبعيداً خلفها

رأى سرباً من حُمّر الـزّرَد بـدا أبيض أيضــاً تجــاه خضرة مجتمع العليق . كان ذلك معسكراً طيّبـاً يقوم في ظل أشجـار ضخـام ، عند سفح إحدى الهضاب ، وقد جرت من حوله المياه العـذبـة ، وبدت إلى جانبه بركـةٌ شبـه جـافـة حيث كانت القطـا الرمليـة تطير في الصباح .

وسألته :

– «ألا تودّ أن أتلو عليك شيئاً ؟»

كانت قاعـدة على كرسيّ من نسيج القنب إلى جـانب سريره الترحّلي . ثم أردفت سؤالها بقولها :

– «ها قدْ هبّت النسائم .»

– «لا ، شكراً .»

– «لعلّ الشاحنة تجيء .»

– «لست أبالي بالشاحنة مثقال ذرة .»

– «أما أنا فأبالي بها .»

– «أنتِ تبالين بأشياء كثيرة جداً لا أبالي أنا بها .»

– «إنها ليست كثيرة جداً يا هاري .»

– «ما قولكِ في شيء من الشراب ؟»

– «المفروض أنه يؤذيك . فقد ورد في كتاب «بلاك» ان من الضروري اجتنـاب الكحول على اختلاف أنواعهـا . ينبغي أن لا تحتسي الشراب .»

– «مولو !»

- «نعم ، بْوَانا !»
- «إيتني بشيء من الويسكي - صودا .»
- «نعم ، بْوَانا !»

فقالت :

- «يحسن بك أن لا تشرب . إن هذا ما أعنيـه حين أتحـدث عن الاستسلام . الكتابُ يقول لك إنه يعود عليك بالأذى . وأنا أعرف أنه يعود عليك بالأذى .»

فقال :

- «لا . إنه يبعث فيّ النشاط .»

وفكّر في ذات نفســـه : وإذن فقـــد انتهى كل شيء الآن . وإذن فلن تسنح له منذ اليوم فرصة لاتمامها . وإذن فقـد انتهت على هذه الشاكلة : مشـاحنـة حول كأس من الشراب . فمنـذ أن أصابت الغنغرينا رجله اليمنى لم يـذق ألماً مـا ، وبزوال الألم زال الذعر ، فإذا كل ما يحسّ به الآن إعياء شديد وغضب ناشيء عن التفكير في أن النهايـة قـد اقتربت . ولم يتكشّف عن كثير من الفضول تجـاه هـذا الـذي كان يحث الخطى نحـوه . لقـد أضرّ بـه طول التفكير في ذلـك سنوات وسنوات ، أمـا الآن فلم يعـد لهـذا الأمر أيّ خطر في ذاته . لقد هوّنه الاعياء الشديد إلى حدّ يـدعو الى الدهش حقاً .

إنه لن يُوفّق منذ اليوم إلى تدوين الاشياء التي أرجأ كتابتهـا إلى حين يصبح في ميسوره أن يصوغها على الوجه الذي يرضيه .

وعلى أية حال ، فهو لن يضطر إلى أن يعاني الاخفاق في محاولة كتابتها أيضاً . ولعلك لستَ بقادر على أن تكتبها أبد الدهر ، وهذا هو السبب الذي من أجله ادّخرتها وأرجأتَ الافادة منها إلى أجل . حسناً ، إنه لن يستطيع أن يقطع بذلك بعد اليوم .

وقالت المرأة :

– «ليتنا لم نجيء إلى هنا .» وكانت تنظر اليه ، حاملاً الكأس ، وهي تعضّ على شفتها . «اذْ ما كان لك أن تصاب بشيء مثل هذا في باريس . لقد كنت دائماً تقول إنك تحبّ باريس . كان في ميسورنا أن نمكث في باريس أو نقصد إلى مكان آخر . ولو قد كنت راغباً في الصيد اذن لكان في وسعنا أن نذهب إلى هنغاريا فنصطاد وننعم بالرفه .»

فقال :

– «ثروتكِ القذرة هي المسؤولة عن ذلك .»

فقالت :

– «هذا ظلم . لقد كانت دائماً ملكاً لك بقدر ما هي ملك لي . لقد تركتُ كل شيء ، وذهبتُ حيثما شئتَ أن تذهب ، ولقد عملتُ الذي أردتَ أن تعمله . ولكني أتمنى لو لم نجيء إلى هنا قط .»

– «لقد قلتِ إنكِ أحببتِ هذه البلاد .»

– «أحببتها حين كنتَ في حال حسنة . ولكني أكرهها

الآن . أنا لا أفهم لماذا أصيبت رجلك بهذا البلاء . ما الذي عملناه حتى نصاب بمثل هذا ؟

– «أحسب أن الذي عملتُهُ هو اني نسيتُ أن أضع صبغة اليود عليها حين حككتُها أول مرة . ثم إني لم ألقِ اليها بالاً لأن جروحي لا يتطرّق اليها الفساد أبداً . أما ما انتهت اليه بعدُ من سوء ، فمردّه في أغلب الظن إلى اصطناعيْ الماء الممزوج بالاوكسجين حين نفدت المطهّرات الأخرى ، وهكذا شُلّت الأوعية الدموية الصغيرة ، وبدأت الغنغرينا .»

ونظر اليها ، ثم أضاف :

– «ثم ماذا ؟»

فقالت : «هذا ما أعنيه .»

– «لو استأجرنا ميكانيكياً بارعاً بدلاً من ذلك السائق «الكوكويو» نصف المخبوز اذن لعدّل مستوى الزيت ، ولما تلفت تلك الذراع الدافعة .»

– «ليس هذا ما أعنيه .»

– «لو لم تفارقي أسرتكِ ، وجميع أبناء اولد وستيوري ، وساراتوغا ، وبالم بيتش الملعونين لكي تستأجريني ...»

– «ولكنني أحببتكَ . هذا ظلم . أنا أحبكَ الآن . لقد أحببتك دائماً . ألست تحبني ؟»

فقال الرجل :

– «لا . لست أظن ذلك . أنا لم أحبّكِ في يوم من الأيام .»

- «هاري ، ما هذا الذي تقوله ؟ لقد فقدت صوابك .»
- «لا . ليس عندي صواب حتى أفقده .»

فقالت :

- «لا تشرب هذا . يا حبيبي ، لا تشرب هذا . ينبغي أن نبذل غاية جهدنا .»

فقال :

- «قومي أنتِ بذلك . أنا مُتْعَب .»

والآن تمثلت في ذهنه محطة للسكة الحديدية في كاراغاتش . كان واقفاً إلى جانب حقيبته ، وكانت أضواء قطار سيمبلون - الشرق الأمامية تمزّق حجاب الظلماء ، وكان هو يغادر تراقية بعد انسحاب القوات المقاتلة منها . كان ذلك أحد الأشياء التي ادّخرها ليكتبها في المستقبل . كما ادخر ما وقع له في الصباح ، ساعة الفطور ، وقد أطل من النافذة ، وبَصُر بالثلج يكلّل الجبال في بلغارية ، وسمع سكرتيرة «نانسن» تسأل الرجل العجوز ما إذا كان ذلك ثلجاً ، فينظر الرجل العجوز إلى الجبال ويقول : لا ، هذا ليس ثلجاً . لا يزال ثمة متسع من الوقت لسقوط الثلج . فالتفتت السكرتيرة إلى الفتيات الأخريات وكرّرت : لا ، هل رأيتنّ ، إنه ليس ثلجاً . فقلن كلهنّ بصوت واحد : انه ليس ثلجاً ، لقد كنا مخطئات . ولكنّ ذلك كان ثلجاً حقيقياً ، ولقد حملهنّ عبره تنفيذاً لاتفاق تبادل السكان . ولقد كان ثلجاً ذلك الذي وطئه حين تخطّفهن الموت ذلك الشتاء .

وكان ثلجاً أيضاً ذلك الذي سقط طوال اسبوع الميلاد ، من تلك السنة ، في «الغوويرتال» ، تلك السنة التي نزلوا أثناءها في بيت أحد الحطابين حيث يحتل الموقد المربع الضخم المصنوع من الخزف الصيني نصفَ الغرفة ، وحيث ناموا على فُرش حُشيت بأوراق الزان ، يوم أقبل الهارب من الجندية وقد دميت رجلاه في سعيهما فوق الثلج . لقد قال ان البوليس كان يتبعه على الأثر ، فأعطوه جورباً صوفياً ، وألهوا الدرك بالحديث حتى زالت آثار قدميه .

وفي شرونز ، يوم الميلاد ، كان الثلج ساطعاً إلى حدّ يؤذي عينيك وأنت تنظر ، من الحانة ، إلى الناس وقد عادوا إلى بيوتهم بعد أن أدوا الصلاة في الكنيسة . وإنما كان ذلك حيث صعدوا في الطريق التي صفّرها البول وذللتها العربات ذات العجلات الخفيضة ، والقائمة على طول النهر ووسط الجبال الشديدة الانحدار المتوجة بالصنوبر ، وقد تنكّبوا المزاليج الثقيلة ، وحيث هبطوا الجبل الجليدي الهائل فوق الـ «مادلينر هاوس» . كان الثلج خفيفاً كالذرور ، ناعماً كطبقة مصقوعة من السكر الناعم تعلو قرصاً من الحلوى . وتذكّر الاندفاعة الخرساء التي تُحدثها السرعة فيما أنت تغوص في المنحدر مثل طائر من الطيور .

لقد حبسهم الثلج ، أسبوعاً بكامله ، في حانة الـ «مادلينر هاوس» ، وقد هبّ هذه المرة إعصار هائج ، فيما هم منصرفون إلى

ورق اللعب على ضوء الفانوس، وفي غمرة من الدخان . وكانت مقادير المال المقامَر به تتضخم كلما أمعن الهر لانت في الخسارة . وأخيراً خسر كل شيء . كل شيء : مالَ مدرسة التزلج وربْح الموسم كله ، ثم رأس ماله . كان في ميسوره أن يرى اليه ، بأنفه الطويل ، يجمع أوراق اللعب ثم يفتح «من غير أن يرى» . كانت المقامرة قائمة على قدم وساق آنذاك . كان المرء يقامر حين يكفّ الثلج عن السقوط ، وكان المرء يقامر حين يتساقط الثلج في غزارة . وفكّر في جميع فترات حياته التي أنفقها على المائدة الخضراء .

ولكنه لم يكتب في يوم من الأيام سطراً واحداً من ذلك كله ، بل لم يكتب سطراً واحداً عن يوم الميلاد ذاك ، البارد المشرق ، وقد بدت الجبال عبر السهل الذي طار جونسون فوقه مجتازاً خطوط العدو لكي يُمطِر بالقنابل قطار الضباط النمساويين المغادرين الجبهةَ في إجازة ، وليقذف هؤلاء الضباط برشاش البنادق الاوتوماتيكية بعد أن تشتت شملهم وولّوا فراراً . وذكر كيف رجع جونسون بعد ذلك إلى القاعة التي كان هو ورفاقه من الضباط يتناولون فيها طعامهم ، وشرع يروي القصة على مسامعهم . وكيف ران الصمت على القوم جميعاً ، لينبري أحدهم آخر الأمر فيقول : «يا لكَ من ابن عاهرة فاتكٍ قذر !»

كان اولئك النمساويون الذين قتلوهم آنذاك هم أنفسهم الذين

تزلج معهم ، في ما بعد . لا ، ليسوا هم أنفسهم . كان هانز ، الذي قُدّر له أن يتزلج معه طوال ذلك العام ، من «قناصة القيصر» . وحين انطلقا معاً لتصيّد الأرانب البرية في الوادي الصغير القائم فوق المنشرة الآلية تجاذبا أطراف الحديث حول القتال الذي دار من أجل «باسوبيو» ، والهجوم على «بيرتيكا» و «آسالون» ، ولم يوَفّق ذات يوم إلى أن يخطّ كلمةً عن ذلك كله ، بل لم يوفق إلى أن يخطّ كلمة لا عن «مونت كورنو» ولا عن «سييت كوموم» ولا عن «آرسييدو» كم شتاءً قد عاش في الـ «فور البرغ» والـ «آرلبيرغ» ؟ كانت أربعة . ثم تذكّر الرجل الذي كان يصطحب ثعلباً يريد أن يبيعه ، فيما كانوا يتقدّمون مشياً على الاقدام نحو «بلودنز» ليشتروا ، تلك المرة ، بعض الهدايا ، كما تذكّر مذاق خمر القراصيا اللذيذ الشبيه بمذاق بزر الكرز ، وفرارهم الخاطف فوق القشرة الخارجية الصلبة وتحت ندف الثلج الذروريّ ، وغناءهم «هيي ! هوو ! قال رولي !» فيما هم يهبطون المنحدر الاخير ، الواقع قبل المنخفَض الوعر الذي قطعوه على نحو مستقيم ، ليجتازوا الحديقة بعدً في دورات ثلاث ولينطلقوا منها عبر الخندق إلى طريق المدينة خلف الفندق الصغير . ثم إنه ذكر كيف حلّ أربطته ، ونزع المزلاجين برفسة من قدميه ، وأسندهما الى جدار الفندق الصغير الخشبي ، وكان ضوء الصباح العاديّ ينبثق من النافذة حيث كان القوم يعزفون على الآكورديون في غمرة من الدفء الداخن ، ومن عبير الخمر الجديدة .

وسأل المرأة التي كانت تجلس أمامه ، في تلك اللحظة على كرسي من نسيج القنّب ، هناك ، في إفريقية :

– «أين أقمنا في باريس ؟»

– «في الكريّون . أنت تعرف ذلك .»

– «لماذا أعرف ذلك .»

– «لأنه المكان الذي ألِفْنا الاقامة فيه دائماً .»

– «لا . ليس دائماً .»

– «هناك ، وفي بافيّون هنري الرابع في سان جرمان . لقد قلت إنك تحبّ تلك البقعة كثيراً .»

فقال هاري :

– «أحبّها ؟ الحبّ مزبلة ، وأنا الديك الذي يرتقي قمتها ليصيح .»

فقالت :

– «إذا كان لك أن تمضي لسبيلك فهل من الضروري أن تحطّم كل شيء تخلّفه وراءك ؟ أريد أن أقول ، أمن الضروري أن تحمل معك كل شيء ؟ أيكون لزاماً علَيك أن تفتك بفرسكِ ، وبزوجتك ، وأن تُحرق سرجك ودرعك ؟»

فقال :

– «نعم . كانت ثروتكِ اللعينة هي درعي .»

– «لا تَقُلْ ذلك !»

– «لا بأس . سوف أقلع عن هذا . أنا لا أريد أن أسيء اليكِ .»

– «ولكنك تأخرت في ذلك بعض الشيء .»

– «حسناً إذن . سوف أواصل الاساءة اليكِ . ذلك أدعى إلى المتعة والسلوى . إن الشيء الوحيد الذي أحببتَ ، حقاً ، أن أفعله معكِ أمسى متعذراً عليّ فعلُهُ الآن .»

– «لا ، هذا غير صحيح . لقد أحببت أن تفعل أشياء كثيرة . وكل الأشياء التي أردت أن تعملها أنت عملتُها أنا .»

– «أوه ، بحقّ المسيح ، كفّي عن الزهو والتمدّح ، من فضلك !»

ونظر اليها فألفاها تبكي .

وقال :

– «إسمعي ، أتحسبين أني أستمتع بهذا العمل ؟ أنا لا أدري لماذا أفعله ؟ إنه أشبه ما يكون بمحاولة المرء أن يَقْتل حفاظاً على حياته هو ، في ما يُخيّل إليّ . لقد كنتُ في حالٍ جيدة حين شرعنا نتحدث . أنا ما كنت أقصد إلى أن أبدهكِ بهذا . وها أنا ذا أبله إلى أبعد الحدود ، وها أنا ذا أعاملك بأقصى ما أستطيع من وحشية . لا تلقي بالاً لما أقول ، يا حبيبتي . أنا أحبك – أحبك حباً صادقاً . أنتِ تعرفين اني أحبكِ . أنا لم أحبّ قطّ أيما امرأة أخرى كما أحبكِ أنتِ .»

وتورّط في الكذبة المألوفة التي كان يأكل بها خبزه اليومي .

– «ما أعذب كلماتك وأحلاها !»

فقال :

- «أيتها العاهرة ! أيتها العاهرة الموسرة ! هذا شِعر . أنا ممتلىء شعراً ، الآن . ممتلىء نتانةً وشعراً . ممتلىء شعراً نتناً !»

- «كفّ عن هذا يا هاري ! ما الذي يحملك على أن تنقلب ، الآن ، إلى شيطان ؟»

فقال الرجل :

- «أنا لا أحب أن أترك أيّ شيء . أنا لا أحب أن أخلّف شيئاً ورائي .»

كان الليل قد هبط ، الآن ، وكان هو قد استسلم للرقاد . لقد غابت الشمس وراء الجبل ، وكان ثمة ظلّ يغمر السهل كله ، وكانت الحيوانات الصغيرة تغتذي غيرَ بعيد من المعسكر . لقد رأى إلى رؤوسها المطأطئة الرشيقة وإلى أذنابها الطافية ، وقد نأت بنفسها عن مجتمع العُلّيق . ولم تَعُدِ الطيور تنتظر على سطح الأرض بعد الآن . كانت كلها جاثمة ، في تثاقل ، فوق إحدى الأشجار . وكان عددها قد تضخّم كثيراً . وكان غلامه جالساً إلى جانب الفراش .

وقال الغلام :

- «لقد ذهبتْ «ممصاحب» الى الصيد . هل يريد «بُوانا» شيئاً ؟»

لقد ذهبت لتفتك بقطعة من اللحم . وإذْ كانت تعرف مدى حبه لمراقبة الطرائد فقد أوغلت في الابتعاد حتى لا تزعج هذا الجزء الصغير من السهل الواقع تحت ناظريه . وقال في ذات

نفسه : إنها بعيدة النظر دائماً . بعيدة النظر في أيما شيء عرفتْه أو قرأتْه ، أو قُدّر لها ذات يوم أن تسمعه .

وليس الذنب ذنبها اذا كان قد أشرف على النهاية حين فاءَ اليها . وكيف تستطيع امرأة أن تعرف انك لا تعني شيئاً مما تقول ؟ وانك لا تتكلم إلا بسائق العادة ، ولكي توقع في نفسك الارتياح ؟ إنه منذ خلا كلامُهُ من الصدق والاخلاص حظيت أكاذيبه لدى النساء بقبول لم يكن حديثه يحظى به حين كان يَصدقهنّ القول .

وما كان ذلك كله راجعاً إلى رغبته في الكذب بقدر ما كان راجعاً الى أنه عَدِمَ حقيقةً يقولها . لقد كانت ، له ، في ما سلف ، حياتُهُ ، ولكنها ما لبثت أن أوفت على الغاية . ثم انه راح يعيشها من جديد مع أناس آخرين ومالٍ أكثر ، مستمتعاً بأحسن ما تستطيع المواطن نفسها أن تقدّمه ، وببعض المواطن الجديدة أيضاً .

لقد أمسكتَ عن التفكير ، وكان ذلك كله رائعاً . ولا ريب في أنك كنتَ مزوّداً بدرعٍ سابغة تقي قلبك وتحفظ عليه حقيقته ، ومن هنا لم تحطّمك تلك الحياة تحطيماً ، كما قد حطّمت معظمهم ، واتخذتَ موقفاً زعمت فيه أنك لا تبالي البتة بالعمل الذي كنت تقوم به ، بعد أن عجزت عن القيام به . بيدَ أنك قلت ، في أعمق أعماقك ، إنك سوف تكتب عن هؤلاء القوم ، عن أصحاب الثروات الضخمة ، وانك في الحق لست

واحداً منهم ، ولكنك عينٌ عليهم ، وجاسوس في ديارهم . وانك سوف تفارق هذه الطائفة من الناس وتسجل انطباعاتك عنها ، وبذلك يكون المثرون الكبار قد صُوّروا ، لأول مرة ، بقلمٍ مطّلع على دخيلة أمرهم . ولكنه ما كان بقادرٍ على أن يفعل ذلك قط ، لأن كل يوم من تلك الأيام التي عاشها من غير ما كتابة ، وفي دنيا من الرّفهِ والنّعمة التي جعلت منه عينَ الشيء كان يزدريه – كل يوم من تلك الأيام كان يبلّد مواهبه ، ويوهن إرادة العمل عنده ، إلى حد انتهى به آخر الأمر إلى أن لا يكتب كلمة واحدة . وكان الناس الذين عرفهم الآن يستشعرون أنهم أوفر حظاً من الراحة حين يهجر هو الكتابة . وكانت إفريقية هي المكان الذي نعِم فيه بأعظم السعادة في الفترة الطيبة من حياته ، وهكذا انقلب اليها ليبدأ من جديد . ولقد قاما بهذه الرحلة الطرَدية بأقل قدرٍ ممكن من أسباب الرّفه . صحيح أنهما لم يقاسيا ضنكاً أو مشقةً بالغة ، ولكنهما لم ينعما بشيء من الترف ، ولقد خيّل اليه أن في استطاعته أن يَرُوْضَ نفسه ، بهذه الطريقة ، على استئناف الكتابة – أنّ في استطاعته بطريقة ما أن يذيب الشحم المتراكم على روحه كما يمضي الملاكم إلى الجبل ليأخذ نفسَهُ بالتمرين الذي يُحرق الشحم المتراكم على جسده .

وسعِدتْ هي بذلك . لقد قالت انها أحبته . كانت تحب كل ما هو مثير ، كل ما ينطوي على التنقل وتبديل المَشاهد ، وتحب الانطلاق إلى حيث ترى وجوهاً جديدة ، وإلى حيث

تكون الأشياء عذبة سائغة . وخيّل اليه هو أن إرادة العمل عنده قد استعادت قواها . فإذا كانت هذه هي النهاية ، وكان يعلم أنها لكذلك ، فليس ينبغي له أن ينقلب إلى ذلك الضرب من الثعابين التي تلدغ نفسها لأن ظهرها قد انفصم . الذنب لم يكن ذنبَ هذه المرأة . لو لم تكن هي إلى جانبه لكانت امرأةٌ غيرها . وإذا كان قد عاش على كذبةٍ ما ، فينبغي أن يحاول الموتَ عليها أيضاً . وسمعَ طلقاً نارياً خلف الهضبة .

كانت تحسن الرماية ، هذه العاهرة اللطيفة – هذه العاهرة الموسرة – هذه الحارسة المتفانية والمحطّمة لموهبته ! هراء ! لقد حطّم موهبته بنفسه . لمَ ينقم من هذه المرأة انّها أسبغت عليه من نعمائها ؟ لقد حطّم موهبته بإهمالها وعدم اصطناعها ، بخيانته ذاتَهُ وتنكّره لما كان يؤمن به ، بإسرافه في الشراب على نحوٍ أذهبَ مضاء حسّه وقدرته على الادراك ، بالكسل ، بالتثاقل ، بالتعالي والادّعاء ، بالغرور وبالحقد ، بطريقة أو بأخرى . أيّ شيء كان هذا ؟ كشفاً بكُتب عتيقة ؟ وأيّ شيء كانت موهبته نفسُها ، على أيّ حال ؟ كانت موهبةً صالحةً من غير ريب ، ولكنه بدلاً من أن يستعملها راح يتكسّب بها . وهي لم تكن في يوم من الأيام ما تمّ له عمله ، بل كانت دائماً ما هو قادرٌ على أن يعمله . ولقد آثر أن يكسب رزقه بشيء آخر غير الريشة أو القلم . ومن عجبٍ حقاً أنه كلما وقع في حب امرأة جديدة كانت تلك المرأة دائماً أغنى من سابقتها ... ولكنه ما إن أقلع عن

الحبّ ، ما إن أخذ يصطنع الكذب ليس غير – شأنهُ الآن مع هذه المرأة ، التي كانت أغنى منهنّ جميعاً ، والتي تملك ثروة العالم كله ، هذه المرأة التي كان لها زوج وأولاد ، والتي عاشت مع نفر من العشاق فلم ترتحْ اليهم ، والتي أحبته أعظم الحب بوصفه كاتباً ، وبوصفه رجلاً ، وبوصفه رفيقاً وقنيةً يُعتزّ بها ... ما إن أقلع عن حب هذه المرأة بالكلية وأخذ بأسباب الكذب حتى صار في ميسورة – ويا للعجب ! – أن يقدّم اليها لقاء أموالها أكثر مما كان قادراً على أن يعطي أيام أحبّ حبّاً صادقاً .

وفكّر في ذات نفسه : لا ريبَ في أن كلاً منا ميَسّرٌ للشيء الذي يعمله . فمها تكن الطريقة التي يكسب بها المرء رزقه فثمةَ موهبته . لقد كان يبيع الحيويةَ ، يبيع الحياة ، على صورة من الصور ، عُمرَه كله ، وحين تُقصى العواطف عن المسرح إقصاءً كبيراً يكون المرء أقدر على أن يقدّم مقابل المال شيئاً يتكافأ معه . لقد اكتشف هذا ، ولكنه لن يوفّق إلى تدوينه الآن ، أيضاً . لا ، إنه لن يقوى على كتابة ذلك ، برغم أنه جدير حقاً بأن يُكتبَ ويُعبّر عنه .

وفي تلك اللحظة بدتْ لناظره ، مجتازةً الأرض الفضاء في اتجاه المعسكر . كانت ترتدي بنطلون فروسيةٍ من النوع المعروف بـ «جودهبور» وتحمل بندقيتها القصيرة . وكان الغلامان يحملان غزالاً شُدّ إلى عصا طويلة ، وكانا يسيران خلفها . وفكّر قائلاً في ذات نفسه : إنها لا تزال امرأة بهية الطلعة ، وإنّ لها جسداً

جميلاً . كانت تقدرُ السريرَ حق قدره وتتمتع بموهبة عظيمة تؤهلها له . إنها لم تكن جميلة ، ولكنـه أحبَّ وجهها . كانت تطـالع في نهم ، وتحب أن تمتطي متن الخيـل ، وان تنطلـق للرمـايــة والصيـد ، وكانت من غير شـك تشرب الخمر فتسرف في شربهـا إسرافاً مغالىً فيه . لقد توفي زوجها وهي بعـدُ صغيرة ، نسبيـاً ، فوقفت نفسها فترةً من الزمن للعناية بولـديها اللـذين بلغـا مبلغ الرجال أو كادا ، واللذين ما كانـا في حـاجـة اليهـا ، فهما يجـدان حرجـاً في أن تكـون على مقربـة منهما ، كما وقفت نفسهـا على العناية باسطبل خيلها ، وبكتبها ، وزجـاجـاتهـا . كانت مولعـةً بـأن تطـالع في المسـاء ، قبل أن تتنـاول طعـام العشـاء ، وكانت تشرب الـويسكي والصـودا فيما هي تقرأ . حتى إذا حـانت سـاعـة العشاء انتهت إلى حالٍ من السّكر اليسير . فما إن تحتسي زجاجـة خمرٍ مع طعام العشاء حتى تمسي ، كدأبها كل ليلة ، ثملـةً إلى حـدّ يُسلمها إلى الرقاد .

كان ذلك قبل أن تستهلّ حياتها مع العشّـاق ، أمـا بعـد أن تطرّق العشّاق إلى حياتها فلم تعد تُسرف في الشراب هذا الاسراف كله لأنها ما كانت في حـاجـة إلى أن تثمل لتنـام . ولكن العشـاق أوقعـوا الضجر في نفسهـا . لقـد كانت من قبـل زوجـةً لرجـلٍ لم يوقع في نفسها الضجر في يومٍ ، ولكن اولئك العشـاق أضجروهـا الى حدٍ لا يطاق .

ثم إن واحـداً من ولـديهـا صُرع في حـادث اصطـدام جويّ .

عندئذ زهدت في العشاق ؛ وإذ عجزت الخمر عن أن تقتل إحساسها فقد التمست لنفسها حياةً جديدة . وفجأةً روّعتها الوحدة الموحشة ، أعنف ما يكون الترويع . ولكنها أرادت أن تحيا الى جانب رجلٍ تُجله وتحترمه .

وإنما بدأ ذلك في بساطة بالغة . لقد أحبّت ما كتبه ، وكانت تغبطه دائماً على الحياة التي يحياها . لقد حسبت أنه يفعل كل ما يرغب في فعله على وجه الضبط : وكانت الخطوات التي اكتسبته بها ، والطريقة التي أدّت بها آخر الأمر إلى أن تهيم بحبه ، تؤلف كلها جزءاً من سيرٍ مطّرد وُفّقت خلاله إلى أن تنشىء لنفسها حياة جديدة ، في حين شرع هو يقايضها بما تبقّى له من حياته القديمة .

لقد قايضها بذلك التماساً للأمن ، وللرّفه أيضاً . إنه لا يُنكر هذا . وفي سبيل ماذا غير الأمن والرفه ؟ إنه لا يدري . لقد كان في ميسورها أن تشتري له أي شيء أراده . وكان يعلم ذلك علم اليقين . وكانت امرأة لطيفة الى حد لعين ، أيضاً . فهو خليق بأن يرغب في الاضطجاع إلى جانبها كمثل رغبته في الاضطجاع إلى جانب أيما امرأة أخرى . بل انه ليؤثرها على غيرها لأنها كانت أعظم ثروةً ، ولأنها كانت عذبة الروح جداً ، تقدر الأشياء حق قدرها ، ولأنها إلى هذا كله ما كانت تصيح وتخاصم بأية حال . وها هي ذي الحياة التي أنشأتها لنفسها من جديد تشرف على غايتها لا لشيء إلاّ لأنه نسي ، منذ اسبوعين ،

أن يصطنع صبغة اليود عندما خدشت شوكةٌ ركبته فيا كانا يتقدّمان إلى أمام محاولين أن يلتقطا بمصوّرتها الفوتوغرافية ، رسماً لجماعة من بقر الوحش الجبلية كانت واقفة ، مرفوعةَ الرؤوس ، محدّقة فيا كانت مناخرها تستروح الهواء ، وفيا كانت آذانها تنتشر على مداها لتسمع أول صوت قد يحملها على أن تهرع الى مجتمع العلّيق ناجيةً بنفسها . ولقد وفّقت إلى أن تفرّ قبل أن يتمكن من التقاط الصورة .

وها هي ذي قد أقبلت الآن .

وأدار رأسه فوق السرير الترحّلي ليرى اليها

وقال :

«هالو !»

وقالت له :

– «لقد اصطدت غزالاً ذكراً . إنه سينفحك بحساء جيد . ولسوف أسألهم أن يهرسوا بعض البطاطا ويمزجوها مع الـ «كليم» كيف تشعر الآن ؟»

– «أحسن بكثير .»

– «أليس هذا رائعاً ؟ أتدري ، لقد قلت في ذات نفسي ان حالتك قد تتحسّن . ولقد كنتَ نائماً حين قصدتُ إلى الصيد .»

– «لقد استمتعتُ بنوم عميق . هل قصدتِ إلى مكان بعيد ؟»

– «لا . لقد انعطفتُ حول الكثيب ليس غير . ولقد سدّدتُ إلى الغزال ضربةً موفقة .»

– «أنتِ تجيدين الرماية إجادة تدعو إلى الدهش ، هل تعرفين ؟»

– «أنا أحب الطَّرْدَ والقنص . ولقد أحببت افريقية وأولعت بها . صدّقني إذا قلتُ ذلك . ولو قد كنت أنت تستمتع بنشاطك كاملاً اذن لكان في ميسوري أن أذهب إلى أني لم أنعم في حياتي كلها بمثل البهجة التي أجدها هنا . أنت لا تدري إلى أي مدى تغمرني السعادة حين أنطلق معك إلى الصيد . أنا معجبة جداً بهذه البلاد .»

– «وأنا معجبٌ بها أيضاً .»

– «أنت لا تدري أيّ روعة تنطوي عليها رؤيتكَ تستعيد صحتك ونشاطك يا حبيبي . أنا لم أطق أن أراك على تلك الحال . ولستُ أشكّ في أنك لن تتحدث إليّ بمثل تلك اللهجة ، بعد اليوم ؟ أتعدُني بذلك ؟»

فأجابها :

– «لا . أنا لا أذكر ما قلت .»

– «ليس ثمة ما يُكرهك على تحطيمي ، أليس كذلك ؟ أنا لا أعدو أن أكون امرأة في خريف العمر تحبّك وتريد أن تفعل ما تريد أنت أن تفعله . لقد حُطّمتُ ، من قبلُ ، مرتين أو ثلاث مرات . ولستَ راغباً في أن تحطمني من جديد ، أليس هذا صحيحاً ؟»

فقال .

– «أود لو أحطّمكِ بضع مرات في السرير .»

– «أجل ، هذا هو التحطيم الصالح . تلك هي الطريقة التي خُلقنا لنحطّم بها . إن الطائرة سوف تكون هنا في غدٍ .»

– «كيف عرفتِ ؟»

– «أنا واثقة من ذلك . ليس لها معدىً عن المجيء . إن الغلمان قد أعدّوا الحطب والعشب لأضرام النيران . ولقد ذهبتُ اليوم فألقيتُ نظرةً عليها ، كرة أخرى . إنّ ثمّة لمتسعاً من الأرض تستطيع الطائرة أن تحطّ فيه . وإن النيران لجاهزة في طرفي المكان كليهما .»

– «ما الذي يجعلكِ تعتقدين أنها سوف تقبل غداً ؟»

– «أنا على مثل اليقين من انها سوف تُقبل . ولقد كان يتعيّن عليها أن تكون هنا الآن . وبعد ذلك يكون في استطاعتنا أن نعالج رجلك ، هناك في البلدة ، ونستمتع بشيء من التحطيم الصالح . بدلاً من هذا التحطيم الفظيع الذي انطوى عليه حديثك .»

– «ما تقولين في كأس من الشراب ؟ لقد جنحت الشمس إلى المغيب .»

– «أتحسب أنْ ليس لك منه بدّ ؟»

– «سوف أحتسي كأساً .»

فقالت :

– «سوف نحتسيها معاً .»

ثم صاحت :

- «مولو ! إيت بالويسكي - صودا !»

وقال لها :

- «من الخير لكِ أن تلبسي حذاءك الطويل الساق ، الواقي من البعوض .»

- «سأنتظر حتى أستحمّ ...»

وانصرفا إلى الشراب فيما الليل يهبط . وقبل أن يلف الظلام الكون ببضع لحظات ، وحين لم يبق من النور ما يمكّن المرء من اطلاق النار اجتاز ضبُعٌ الأرض الفضاء قبل أن ينعطف حول الهضبة .

وقال الرجل :

- «إنّ ابن الزانية هذا ليمرّ من هنا كل ليلة . كلّ ليلةٍ منذ أسبوعين اثنين .»

- «إنه هو الذي يثير الضجة في هدأة الليل . أنا لا أبالي به . إنه حيوان كريه تعافهُ النفس .»

وفيما كان يعاقر الخمر معها ، وليس يستشعر من الألم غير ذلك الضيق الناشيء عن الاضطجاع على وضعٍ واحد لا يتبدل ، وفيما الغلمان يضرمون النار فتتراقص ظلالها على الخيام ، أمسى في مقدوره أن يستشعر الاذعان يعاوده في هذه الحياة القائمة على الاستسلام العذب . لقد كانت حفيّةً به ألى حدّ بعيدٍ حقاً . ولقد كان هو قاسياً وظالماً في ذلك الأصيل . كانت امرأة ممتازة ، بل

لقد كانت رائعة من غير ريب . وفي تلك اللحظة عينها راودته فكرةٌ أوقعت في ذات نفسه أنه سوف يموت .

وإنما أقبلت تلك الفكرة في اندفاعة صاعقة ، ليست كاندفاعة الماء أو الريح ، ولكنها أشبه ما تكوّن باندفاعة فراغ مفاجيء نتن الرائحة انسلّ الضبع ، وهنا موضع الغرابة ، خفيفاً رشيقاً إلى حافته .

وسألته :

– «ما بك ، يا هاري ؟»

فأجابها :

– «لا شيء . من الخير أن تنتقلي إلى الجانب الآخر في اتجاه الريح .»

– «هل غيّر مولو الضمادة ؟»

– «أجل . أنا لا أستعمل غير ماء البوريك الآن .»

– «كيف تشعر ؟»

– «أرتعش بعض الشيء .»

فقالت :

– «أنا ذاهبة لا ستحم . ولسوف أرجع في الحال . سوف أتناول الطعام معك ثم ندخل السرير .»

وقال في ذات نفسه : لقد أحسنّا صنعاً بأن كففنا عن الخصام . إنه لم يختصم قطّ كثيراً مع هذه المرأة ، على حين قُدّر له أن يختصم مع النساء اللواتي أحبّهن اختصاماً موصولا انتهى

دائماً ، بقدرته على البري والقرض ، إلى أن يقتل الاواصر التي تجمع ما بينه وبين كل من اولئك النساء . لقد أحب أكثر مما ينبغي ، وتطلّب أكثر مما ينبغي ، ثم استنفد ذلك كله وأتى عليه .

وحين خلا إلى نفسه رجعت به الذاكرة ، هذه المرة ، إلى القسطنطينية وكان قد تخاصم مع صاحبته في باريس قبيل مغادرته إياها . وهكذا راح ينفق لياليه في مطاردة البغايا . حتى إذا أوفى من هذا الاستهتار على الغاية - فلم يزده ذلك إلا شعوراً بالوحدة الموحشة التي حاول القضاء عليها - كتب اليها ، إلى المرأة الأولى ، إلى المرأة التي هجرته ، رسالةً حدّثها فيها عن اخفاقه المطلق في محاولة القضاء عليها ... كما حدّثها كيف خُيّل اليه ذات يوم أنه رآها قرب الـ « ريجانس » فخانته ساقاه ، فجأةً ، وعصف برأسه الدوار . وكيف كانت نفسه تنازعه إلى أن يتعقّب أيما امرأة تبدو وكأنها تشبهها ، ما امتدّ البولفار ، خائفاً أن يقترب منها ويكتشف أنها ليست هي ، خائفاً أن يفقد ذلك الاحساس الذي أكسبته إياه . وكيف أن كل امرأة فاء اليها لم تزده إلا شوقاً اليها هي وافتقاداً لها هي . وكيف ان ما عملتهُ لن يقدّم أو يؤخر بحال من الأحوال ما دام عالماً انه عاجز عن أن يشفي نفسه من حبها . لقد خطّ هذه الرسالة في « النادي » ، وهو صاحٍ أتمّ الصحو ، ووجهها بالبريد إلى نيويورك سائلاً إياها أن تكتب اليه على عنوان المكتب في

باريس . لقد بدا ذلك مأموناً . وفي تلك الليلة بالذات افتقدها إلى حدّ جعله يستشعر الفراغ والغثيان ، فراح يهيم على وجهه مجتازاً ناحية « تقسيم » ، والتقط إحدى الفتيات واصطحبها لتناول طعام العشاء . ثم انه قصد إلى عُلبة من عُلب الليل ليراقصها . وكان رقصها رديئاً ، فتركها وراقص بغياً أرمنية ملتهبة أخذت تؤرجح بطنها عليه حتى لقد أحسّ به وكأنه يشتغل أو يكاد . لقد انتزعها من مدفعيّ بريطاني بسيط إثر خصام نشب بينهما . وكان المدفعي قد دعاه إلى أن يمضي إلى الخارج ، حيث تقاتلا في الشارع فوق الحصباء ، وفي غمرة من الظلام . لقد أصابه مرتين اثنتين إصابةً عنيفة على جانبٍ من فكّه ، حتى إذا تماسك وامتنع على السقوط أُدرك أن المعركة جدية حقاً . ولكمه المدفعيّ على جسده ، ثم لكمه غير بعيد عن عينه . فرفع يده اليسرى لضربه من جديد ، فسقط المدفعي فوقه . ولكنه أمسك بسترته ، ومزّق ردنها ، ولكمه لكمتين خلف الأذن ، وسحق وجهه بيمناه ، فيما هو يدفعه عنه دفعاً عنيفاً . حتى إذا وقع المدفعي أصابَ رأسُهُ الأرض قبل سائر جسده ، وفرّ هو مع الفتاة بعد أن أحسّ بأن الشرطة العسكرية قد أقبلت . وامتطيا متن سيارة اجرة ، وانطلقا إلى « رميلي هيسّا » ، على ضفاف البوسفور ، ثم طوّفا في الضواحي ، ليرجعا بعدُ تحت جنح الظلام البارد ، فيأويا إلى مضجعها ، وقد بدت من النضج المغالي فيه بقدر ما كشف له النظر اليها ، ولكنها

ناعمة الملمس ، وردية اللون ، مُشْرَبة بالسكّر ، مخملية البطن ، ضخمة الثديين ، مرتفعة الردفين . ولكنه فارقها قبل أن تفيق من رقادها . وقد تراءت منهوكة القوى تحت أشعة الشمس الباكرة ، وقصد إلى « بيرابالاس » ، وأثرُ اللكمة العنيفة بادٍ حول عينه ، حاملاً سترته على يده بعد أن أعوزها أحدُ ردنيها .

وفي الليلة نفسها قصد إلى الأناضول ، فهو يذكر كيف سلخ يوماً بكامله من أيام تلك الرحلة المتأخرة وهو يجوز حقول الخشخاش التي زُرعت ابتغاء انتاج الأفيون – وأيّ شعورٍ أوقعه ذلك في نفسه ، آخر الأمر ، وقد بدت المسافات كلها غير مذللة – إلى حيث سبق لهم أن شنوا هجوماً مع الضباط القادمين حديثاً من قُسَنطينة ، والذين ما كانوا يعرفون ذرةً واحدة مما ينبغي أن يفعلوه ، وحيث سبق للمدفعية أن فتحت النار على الجند ، وشرع المراقب البريطاني يذرف الدمع مثل طفل من الأطفال .

كان ذلك هو اليوم الذي رأى فيه ، أول مرةٍ ، أمواتاً يرتدون تنانير « باليهْ » بيضاء وأحذيةٍ مستدقة الرؤوس منعطفة إلى فوق ، مزدانة بكتل حريرية كالتي تُحلّى بها القبعات . كان الاتراك قد أقبلوا في غزم واطّراد ، وكأنهم البنيان المرصوص ، وكان قد رأى إلى الجنود ذوي التنانير المنتفخة يولّون الادبار ، فيطلق الضباط عليهم النّار ، ثم يولون هم أنفسهم الأدبار . وكان هو والمراقب البريطاني قد أطلقا سُوقهما للريح أيضاً حتى لقد

استشعر الالم يحتزّ رئتيه ، وملأطعمُ المال فمه ، ليقفا وراء بعض الصحور فيجدا الاتراك مقبلين في مثل تراصّهم الأول . وفي ما بعد ، وقع نظره على مشاهد ما كان قادراً على التفكير فيها ، وفي فترة أخرى متأخرة قُدّر له أن يرى ما هو أدهى وأمرّ . والحق أنه كان عاجزاً ، حين انقلبَ إلى باريس ، تلك المرة ، عن أن يتحدث عنها أو يُطيق مجرد الاشارة اليها . وهناك ، لدن مروره بالمقهى ، كان ذلك الشاعر الاميركي الذي نهض أمامه ركامٌ من الصحون الصغيرة ، ورانت على وجهه البطاطسيّ انطباعة بلهاء ، واسترسل في الحديث عن الحركة الدادية مع رجل رومانيّ قال ان اسمه «تريستان تزارا» وكان يصطنع دائماً نظارة وحيدة الزجاجة (مونوكل) ويشكو الصداع . وحين رجع إلى «شقّته» مع زوجته التي عاوده حبّها الآن من جديد - بعد ان انتهى الخصام ، وانتهى الخبَل ، وغمرته السعادة بالعودة إلى بيته - بعث المكتبُ ببريده إلى «الشقة» . حتى إذا جاءه جواب الرسالة التي كتبها محمولاً ، ذات صباح ، على طَبَق ، ورأى إلى الخط الذي حُرّر به سرَت في أو صاله قشعريرة ، وحاول أن يُخفيه تحت رسالة أخرى ؛ ولكن زوجته قالت : «ممّن هذه الرسالة أيها العزيز ؟» وكان في ذلك نهاية تلك البداية .

وذكر الأيام الحلوة التي قضاها معهنّ كلهن ، وذكر ضروب النزاع التي شجرتْ بينه وبينهنّ : كنّ يتخيّرن دائما أجمل المواطن فيُثِرْنَ الخصام فيها . ولماذا كنّ لا يخاصمنه إلاّ وهو في أحسن

أحواله من البهجة والسعادة ؟ إنه لم يكتب حرفاً من ذلك كله ، لأنه ما كان راغباً – باديء الأمر – في أن يسيء إلى أحد ، ثم بدا له – بعد ذلك – وكأن عنده أشياء كثيرة يصطنعها من دونها ، مادةً للكتابة . ولكنه كان يعتقد ، أبداً ، انه سوف يعبّر ، من غير شك ، عن تلك المعاني كلها آخر الأمر . كان ثمة أشياء كثيرة ينبغي أن تُكتب . لقد رأى العالم يتغيّر ، لا الأحداث فحسب ، على الرغم من أنه شهد جمهرةً كبيرة منها وراقب الناس، ودرس أحوالهم . ولكنه شهد التحوّل الأكثر لطفاً ودقة ، وكان في ميسوره أن يذكر كيف كان الناسُ في فترات مختلفات . لقد عاش ذاك كلّه وخاض غماره ، وكان من واجبه أن يكتب عنه . ولكنه لن يقدر على ذلك الآن .

وقالت له :

– «كيف حالك ؟»

وكانت قد انبثقت من الخيمة بعد أن غادرت الحمام .»

– «لا بأس .»

– «هل تستطيع ، الآن ، أن تأكل ؟»

لقد رأى مولو خلفها حاملاً المائدة المرنة القوائم ، ورأى الغلام الآخر وفي يديه الصحون .»

وقال :

– «أريد أن أكتب .»

– «ينبغي أن تحتسي شيئاً من المرق لكي تستعيد قواك .»

فقال :

– «سأموت هذه الليلة . أنا لست في حاجة إلى أن أستعيد قواي .»

فقالت :

– «لا تكن عاطفياً ومتشائماً بأكثر مما ينبغي ، يا هاري ، أرجوك !»

– «لماذا لا تستعملين أنفكِ ؟ لقد انتهى الفساد إلى منتصف فخذي الآن . فعلامَ تريدين مني أن أعبث بالمرق ؟ منولو ، هات الويسكي – صودا !»

فقالت في لطف :

– «أرجوكَ أن تحتسي المرق !»

– «حسن جداً .»

كان المرق ساخناً أكثر مما ينبغي . ومن هنا تعيّن عليه أن يُبقيه في الأناء حتى يبرد إلى حدٍّ يتمكن معه من شربه . ثم إنه ازدرده من غيرِ أن يتقيأه .

وقال :

– «أنتِ امرأة مدهشة . لا تلقي أيما بالٍ إليّ .»

ونظرت اليه بوجهها الذي عرفه جيداً ، وأحبّه جيداً في صفحات «المهماز» و «البلدة والريف» ، والذي لم يُبْلِهِ الشراب إلا قليلاً ، ولم يَبله الفراش إلا قليلاً . ولكن «البلدة والريف» لم تتكشّف قط عن مثل هذين النهدين المتكوّزين ، وهذين

الفخذين المسعِدين ، وهاتين اليدين المتودّدتين ، المحدّبتين بعض وحين التفت نحوها ، ورأى إلى ابتسامتها العذبة الشهيرة أحسّ بالموت يُقبل من جديد . لم يكن ثمة اندفاعة ، هذه المرة . لقد استشعر هبّةً ، هي أشبه ما تكون بهبّة الريح التي تخفُقُ ضوءَ الشمعة ، ثم تزيده طولاً .

– «ليس عليهم إلاّ أن يُخرجوا كِلّتي ويشدّوها إلى الشجرة ثم يضرموا النار . أنا لن آوي إلى الخيمة هذه الليلة . فلست أريد أن أضيع دقيقة واحدة من ساعاتي الباقية في الانتقال . ثم إنها ليلة مقمرة . ولن ترسل السماء شيئاً من المطر .»

وإذن فتلك هي الطريقة ، التي متّ بها ، في همسات لم تكن قادراً على سماعها . حسناً لن يكون ثمة خصام بعد اليوم . كان في ميسوره أن يَعِدَ بذلك . فهو لا يريد أن يفسد التجربة في هذه اللحظة ، تلك التجربة الوحيدة التي لم يعرفها قط من قبل . ومن يدري ، فلعله أن يفسدها . لقد أفسد كل شيء دائماً . ولكن من يدري أيضاً ، فلعله أن لا يفسدها .

– «أنتِ لا تعرفين الاختزال ؟ أليس كذلك ؟»

فأجابته :

– «أنا لم أتعلم ذلك في يوم من الأيام .»

– «حسن جداً .»

وواضح أنه لم يكن ثمة متسع ، من الوقت ، على الرغم من أن تلك الأشياء كلها بدت وكأنها تتدافع وتتداخل على نحو

يمكّنك من أن تفرغها برمتها في فقرة واحدة لو وُفّقتَ إلى أن تأخذ بقيادها جيداً .

كان عند إحدى الهضاب القائمة فوق البحرية منزل مبنيّ من الحطب الضخم المستدير ، سُدّت صدوعه بالملاط فهي بيضاء . وكان ثمة جرس معلق بوتد قائم إلى جانب الباب يُقْصَدُ به إلى دعوة القوم حين تحين ساعة الطعام . ووراء المنزل كانت الحقول ، ووراء الحقول كانت الغابة . وامتد صف من حَور لومباردية من المنزل إلى البحيرة . واصطفت جمهرة أخرى من الحور فوق رأس الهضبة . وكانت تُصَعِّدُ في الهضاب طريق اتخذت سبيلها على حافة الغابة ، وعلى طول تلك الطريق كان يَقطف ثمَرَ التوت . وبعد ذلك احترق المنزل الخشبي ، واشتعلت جميع البنادق الموضوعة على رفوف من أقدام الأيائل فوق الموقد المكشوف . ثم احترقت أساطينها المعدنية ، وذاب الرصاص في أوعيتها ومخازنها ، وانفجر البارود المدّخر كله وانطرح فوق ركام الرماد الذي اصطُنع في عمل القِلي الضروري لصنع الصابون في القدور الحديدية الضخمة . ولقد سألتَ جدك ما إذا كان في امكانك أن تأخذ ذلك لتلعب به ، فقال : لا . وليس يخفي عليك أن تلك البنادق كانت ما تزال ملكاً له ، وهو لم يشتر قط غيرها بعد ذلك . بل لم يعاود الصيد منذ اليوم . ثم ان المنزل أعيد بناؤه من خشب الغابات نفسه ، وطُلي بطبقة من الدهان الأبيض . ومن شرفته كنت ترى إلى شجرات الحور ، وإلى

البحيرة المنبسطـة بعيـداً عنـه ، ولكن لم يبق ثمـة بنـادق البتـة . وكانت أساطين البنادق المعدنيـة التي سبق لهـا أن عُلِّقت بـأقـدام الأيـائل فوق حـائـط المنزل الخشبي منطرحـة هنـاك ، فوق ركام الرماد ، فليس يمسّها أحد على الاطلاق .

وفي الغـابـة السوداء ، بعـد الحرب ، استـأجرنـا جـدول مـاء حافلاً بسمك الأطروط . وكان ثمة طريقان توصلان اليه . كانت إحداهما تنحـدر في الوادي من تريبرغ ، ثم تنعطف حول طريق الوادي في ظل الاشجار المحيطة بجانبي الطريق البيضـاء ، ليتخـذ السالك بعد ذلك سبيلاً فرعية تصعّـد خلال الهضـاب ، عبر كثير من المـزارع الصغيرة ، وبيـوت «الغـابـة السـوداء» الكبيرة ، إلى حيث يجتاز الطريقُ جدولَ الما . وهناك بـدأنـا صيـدنـا أول مـا بدأناه .

وكانت الطريـق الأخرى تقتضينـا أن نتسلـق جُرفـاً شـديـد الانحدار حتى نبلغ تخوم الغابة ثم نمضي عبر قنن الهضاب ، ووسـط أشجار الصنوبر لننتهي إلى حافة مرج من المروج ، فنهبـط ذلـك المرج حتى الجسر . وكانت أشجــار السنـــدر تنهض على طــول الجدول ، ولم يكن كبيراً ، ولكنه ضيق ، صـاف ، سريع ، خلّف بركاً حول الأشجار التي مر بهـا ، وقـد نشـأت بعض البرك حيث ثلّم التربـةَ تحت جـذور السنـدر . وفي فنـدق . تريبرغ كان رب العمل ينعم بموسم ناجح . كان كل شيء بهيجاً ، وكانت تربط مـا بيننا جميعاً صداقة وثيقة العرى . وفي العام التالي أصاب التضخم

المالي البلاد ، فلم تعد الثروة التي جمعها في السنة الفائتة كافية لتزويد الفندق بالمؤن ، فشنق الرجل نفسه .

كان في ميسورك أن تملي هذا ، ولكن لم يكن في ميسورك أن تملي صورة لساحة كونترسكارب حيث كان باعة الزهور يصبغون زهورهم في الشارع فيسيل الصبغ فوق الموقف المرصوف الذي تنطلق منه عربات الاوتوبيس ، وحيث العجائز من رجال ونساء سكارى أبداً بالخمر والتجير الردي ، وحيث الأطفال ترشح أنوافهم في وجه البرد ، وحيث رائحة العرق القذر ، والفقر ، والسكُر تفوح من «مقهى الهواة» ومن مومسات الـ «بال موزيت» اللواتي كن يعشن فوقه . اجل لم يكن في ميسورك أن تصوّر بوابة الحانة التي كانت تضيف في كوخها أحد رجال «الحرس الجمهوري» وقد وضع خوذته المريشة بشعر الفرس على كرسي ، أو تصور تلك المرأة المستأجرة عبر الرواق ، وكانت زوجاً لمتبارٍ في سباق الدراجات ، وبهجتها ذلك الصباح ، في دكان بيع الحليب ، حين فتحت مجلة الـ «أوتو» ، ورأت أنه نال المرتبة الثالثة في «دورة باريس» ، أول سباق كبير يشترك فيه . لقد شاع الندم في وجهها ، وضحكت ، ثم ارتقت السلم باكية والصحيفة الرياضية الصفراء في يدها . وكان زوج المرأة التي تدير الـ «بال موزيت» سائق سيارة . وحين اضطر هو ، هاري ، إلى أن يمتطي ، ذات صباح باكر ، متن الطائرة قرع الزوج باب غرفته ليوقظه من رقاده واحتسى كل منهما كأساً من

الخمر البيضاء ، أمام المشرب ، قبل أن ينطلقا . كان يعرف جيرانه في تلك المحلة لأنهم كلهم كانوا فقراء .

وحول تلك الساحة كانت طائفتان من الناس : طائفة السكيرين وطائفة الرياضيين . كان السكيرون يقتلون فقرهم وبؤسهم بتلك الطريقة ، على حين كان الرياضيون يحاولون القضاء عليهما بالتمارين التي يصطنعونها . كانوا حفدة الكومينار ، ولم يكن السياسة عندهم مشكلة عسيرة . كانوا يعرفون من الذي قتل بنار البنادق ، آباءهم ، وأنسباءهم ، واخوتهم ، وأصدقاءهم حين اقتحمت جيوش فرساي المدينة واحتلتها بعد سقوط «الكومون» وأطاحت برأس كل من استطاعت أن تعثر عليه من ذوي الأيدي الغليظة ، أو ممن يرتدون القبعات ذوات الحوافي الأمامية الناتئة ، أو يحملون أي اشارة تؤذن بأنهم من الطبقة العاملة . وفي غمرة من ذلك الفقر والبؤس ، وفي ذلك الحي هناك ، عبر الشارع ، بين دكان تباع فيه لحوم الخيل وتعاونية خمرية ، كتب استهلالاً لكل ما كان يعتزم أن يؤلفه في ما بعد . إنه لم يحب أيما حي من أحياء باريس كما قد أحب هذا الحي وأحب أشجاره الغارقة في أوراقها ، ومنازله العتيقة البيضاء ، المجصصة ، المصبوغ أدناها باللون الأسمر ، ووشاحَ الاوتوبيس الطويل الاخضر في تلك الساحة المستديرة ، وصِبْغَ الزهور الارجواني المسفوح على حجارة الشارع الموصوفة ، والانحدارَ المفاجيء من أعلى شارع الكاردينال لوموان إلى النهر ، وعَالَم

شارع موفتار الضيق الحاشد القائم في الناحية الثانية ، وذلك الشارع المصعّد نحو البانتييون والشارع الآخر الذي كان يجتازه دائماً على الدراجة الهوائية وهو من دون شوارع ذلك الحي كله مفروش بالاسفلت ، ناعم تحت العجلات المطاطية – ببيوته الضيقة العالية وذلك الفندق السامق الرخيص الذي مات فيه بول فيرلين . ولم يكن في الشقة التي عاشا فيها غير غرفتين اثنتين ، وكانت له في الدور الأعلى من ذلك الفندق غرفة أجرها ستون فرنكاً كان يفرغ فيها للتأليف ، وكان في ميسوره أن يطل منها على السطوح والمداخن وهضاب باريس كلها .

ومن الشقة ، لم يكن في ميسروك أن ترى غير دكان بائع الحطب والفحم . وكان يبيع خمراً أيضاً ، خمراً رديئة . وغير رأس الحصان الذهبي خارج «الجزرة الخيلية» حيث تدلّت أجساد الخيل الذبيحة صفراءَ ذهبيّةً وحمراء من خلال النافذة المشرعة ، وغير «التعاونية» المصبّغة باللون الأخضر حيث كانوا يشترون خمرهم – خمرهم الجيدة الرخيصة . أما سائر ما هنالك فلم يَعْدُ أن يكون جدراناً مجصصة ، ونوافذ الجيران . الجيران الذين ما يكادون يرون ، في موهن من الليل ، سكيراً منطرحاً في الشارع يئن وينوح في ذلك الثَمل الفرنسي النموذجي الذي حاولت الدعاية اقناعك بأنه شيء لا وجود له ، حتى يفتحوا نوافذهم ، ويتجاذبوا مثل هذا الحديث المهموس :

«أين الشرطي ؟ انك حين لا تكون في حاجة إلى ذلك

النذل تجده دائماً أمامك . إنه نائم مع إحدى حارسات الفنادق والحانات . أدعوا الشرطي !» حتى يسفح بعضهم دلو ماء من بعض النوافذ ويخمد الأنين . – «ما هذا ؟ ماء . آه ، هذا عمل يدل على ذكاء .» وتوصد النوافذ ، وتحتج ماري ، مدبّرة منزله ، على جعل يوم العمل مقصوراً على ثماني ساعات قائلة : «لو كان الازواج يشتغلون حتى الساعة السادسة لما كان في استطاعتهم أن يمعنوا في السكر وهم راجعون إلى بيوتهم ، ولما أنفقوا الجزء الأعظم من أجورهم على الشراب . أما حين يعملون حتى الساعة الخامسة فقط فعندئذ يسكرون كل ليلة وتفرغ جيوبنا من المال . إن زوجة العامل هي التي تتحمّل الأذى الناشيء عن تخفيض ساعات العمل !»

وقالت المرأة الآن :

– «ألا ترغب في مقدار اضافي من الحساء ؟»

– «لا . أشكركِ شكراً عظيماً . إنه جيّد إلى حدٍ بعيد .»

– «جرّب مقداراً قليلاً .»

– «أفضّل أن أحتسي شيئاً من الويسكي – صودا .»

– «هذا لا يفيدك .»

– «أجل . إنه يضرني . لقد نظم كول بورتر الأغنية ولحّنها : «أنا أدري أنكِ مُتيّمة بحبي .»

– «أنت تدري جيداً أني أحب أن أراك تعاقر الخمر .»

– «أجل ، أدري . كل ما في الأمر أن ذلك يضرّني .»

وبينه وبين نفسه قال : حين تذهب ، سيكون في وسعي أن أشرب من الخمر كل ما أشاء . لا كل ما أشاء ، ولكن كلّ ما في متناولي منها . آه ، لقد كان متعَباً . متعباً أكثر مما ينبغي . وكان يعتزم أن يستسلم للرقاد فترة قصيرة . واعتصم بالسكون ، فلم يَلْقَ وجهَ الموت . لا بدّ انه يطوّف في شارع آخر . إن زبانيته ينطلقون اثنين اثنين ، على الدراجات الهوائية ، ويتحركون فوق حجارة الطرق المرصوفة في صمت مطلق .

لا . إنه لم يكتب قط عن باريس . باريس التي كانت أثيرةً لديه ، أعني . ولكن ما تقول في سائر الاشياء التي لم يُقدّر له أن يكتبها ؟

ما تقول في المزرعة الحافلة بالخيل والمواشي ، وفي ادغال القصعين الرمادية المفضّضة ، والمياه الرشيقة الصافية في قنوات الريّ ، وخضرة البراسيم الصارخة ؟ لقد صعّد في المجاز حتى الهضاب ، وفي الصيف كانت المواشي حيّة كالأيائل . بل ما تقول في الخوار والضجة الموصولة وقطيع الماشية البطيء الحركة ، المثير الغبار ، فيما أنت تهبط به المنحدر أيام الخريف ؟ وفي رهافة القمة الثاقبة ، خلف الجبال ، في أشعة المساء ، فيما يهبط المرء المجاز ، على صهوة الفرس ، في ضوء القمر ، وقد تلألأ الجانب الآخر من الوادي تلألؤاً شاملاً ؟ لقد ذكر الآن كيف هبط عبر الغابة ، ذات يوم ، تحت جنح الظلام ، وقد أمسك بذيل الفرس حين فقدت عيناه القوة على الإبصار ، وجميع الحكايات التي كان يعتزم أن يكتبها .

وما تقول في فتى الجوقة الكنسية المعتوه الـذي تُرك في المزرعـة آنئذ وأُفهِم بأن يمنع أيما امريء من الصـائرة ، وذلـك النغل العجوز الذي سبق له أن ضرب الغلام يوم كان يشتغل عنده ، يقف ليطعم دوابّه . ويصدّه الفتى عن سبيله ، فيقول الرجل العجوز إنـه سوف يضربه من جديد . وهنا قصـد الفتى إلى المطبخ وجـاء بـالبندقيـة وأطلق النـار عليـه حين حـاول أن يقترب إلى مستودع الحنطـة . حتى إذا رجعـوا إلى المـزرعـة كان قـد انقضى أسبوع على مصرعـه ، وكان الصقيع قد أصابه في حظيرة المواشي ، وقـد التهمت الكلاب جزءاً منـه ، ولكنـك ألقيت مـا بقي منـه على عربـة تزلّج بعـد ان لففته ببطانية وحزمته بحبل وسألتَ الغلام أن يساعدك في جـذب العربـة ، وهكـذا سقتمـاهـا ، كلاكما ، متزلجين حتى الطريق ، ثم هبطتَ إلى البلـدة مجتـازاً ستين ميلاً لكي تسلم الفتى إلى البـوليس . وكان هو خالي الذهن من أمر الاعتقـال . كان يحسب أنـه قـد أدى واجبه ، وانك صديقه ، وإنه أهلٌ للمكافـأة . لقـد سـاعـد على نقل الرجل العجوز لكي يكون في مقدور كل امرئ أن يرى إلى أيّ حـدّ كان ذلك الرجل شريراً ، وكيف حاول أن يسرق شيئاً من الصائرة التي لا يملكها . وحين صفّد محافظ المقاطعة يدي الغلام بالأغلال لم يكن في ميسوره أن يصدّق عينيه . وعندئـذ انفجر بـاكيـاً . تلـك كانت قصةً ادّخرها لكي يكتبها فيب في يوم من الأيام . ولقـد كان يعرف عشرين قصة جيدة ، على الأقل ، عن تلك الديار ، ولكنـه لم يوفّق إلى كتابة أيّ منها . لماذا ؟

وقال :

– «قولي لهم أنتِ لماذا .»

– «ماذا تقول ، أيها العزيز ؟»

– «لا شيء .»

وما كانت لتسرف الآن في الشراب ، منذ أن فازت به . ولو قد كُتب له البقاء إذن لما كتب شيئاً عنها أبداً . لقد عرف ذلك الآن . بل لن يكتب عن أي منهن . كان الأغنياء مُضجرين ، وكانوا يسرفون في الشراب أكثر مما ينبغي ، أو يلعبون النرد أكثر مما ينبغي . كانوا مضجرين يكرّرون أنفسهم على نحوٍ رتيب . وهنا تذكّر جوليات البائس وذعره الوهمي منهم وكيف استهلّ ذات يوم قصةً له بقوله : «ان الاغنياء الكبار يختلفون عني وعنك » . وكيف قال بعضهم لجوليان : «أجل ، لأنّ عندهم مالاً أكثر» . ولكن جوليان لم يجد في هذا الكلام شيئاً من الظرف . كان يعتقد أنهم عِرقٌ خاص ، تحيط بهم هالةٌ من السّحر العجيب . حتى إذا اكتشف انهم ليسوا على شيء من ذلك حطمه هذا الاكتشاف بقدْر ما حطمته أيما صدمة أخرى .

وكان يزدري اولئك الذين يجيزون للصدمات أن تحطمهم . وما كان فهمك لموقفهم ليجعلك تعتقد انه حسن . وقال في ذات نفس : في استطاعتي أن أقهر كل شيء ، لأنه ما من شيء يستطيع أن يُنزل بي أذى ما إذا لم أبالِ به .

حسن . إنه لن يبالي بالموت . كان ثمة شيء واحد يخشاه

دائماً ، هو الألم.. وكان في ميسوره أن يحتمل الألم كما يحتمله أيما رجل شرط أن لا يتطاول أكثر مما ينبغي ، ويُبلي مقاومته . ولكنه ههنا أمام شيء آذاه إيذاءً مروّعاً ، حتى إذا استشعر انه قاصمٌ ظهره انحسر الألم وتلاشى .

وذكر كيف أصيب ضابط القنابل ، وليامسون ، منذ عهد طويل ، بقنبلة ذات مقبض قذفها أحد أفراد دورية المانية. فيما كان الضابط يجوز الإسلاك الشائكة تلك الليلة ، فأنشأ يصيح ويتوسل إلى كل امريء أن يقتله . كان رجلاً بديناً ، بالغ الشجاعة ، وضابطاً ناجحاً على الرغم من أسباب الطيش التي يتعلق بأهدابها . ولكنه وقع تلك الليلة في شرك الأسلاك الشائكة ، وقد سُلّط عليه ضوءٌ كشاف ، واندلقت أحشاؤه على الأسلاك الشائكة ، حتى لقد اضطروا ، حين أعادوه حياً ، إلى أن يبتروها ويحرروه منها . كان يصيح : «أطلق عليّ النار يا هاري ! إكراماً للمسيح ، أطلق عليّ النار !» وكانوا قد تناقشوا ذات يوم في الفكرة القائلة بأن الرب لا يحمّل الإنسان أبد الدهر شيئاً لا يطيقه ، ودعم بعضهم وجهة النظر هذه بقوله إن الألم ينحسر عنك في بعض الأحيان انحساراً اوتوماتيكياً . ولكنه ما انفك يفكر في وليامسون تلك الليلة . ولم ينحسر سيء ما عن وليامسون حتى أعطاه جميع أقراصه المورفينية التي كان من دأبه أن يحتفظ بها لنفسه . وحتى هذه لم تحدث أثراً ما في الحال .

وأياً ما كان ، فهذا الذي يعانيه الآن هيّن يسير إلى حدّ

بعيـد . وإذا لم تزدد حـالـه سوءاً فلن يكون ثمـة مـا يـدعـو إلىّ القلق . ما خلا أنه كان يودّ لو يكون إلى جانب رفاق آخرين .

وفكّر قليلاً في الرفاق الذين يتمنى لو كانوا إلى جانبه .

وقال في ذات نفسـه : لا ، إنـك حين تعمل كل شيء مليّـاً ، أكثر ممـا ينبغي ، ومتـأخراً أكثر ممـا ينبغي ، لا يجـوز لـك أن تتوقع أن يكون الناس بـاقين هنـالك مـا يزالون . إن القوم كلهم قـد رحلـوا . لقـد انفضّ السـامر . وهـا أنت ذا الآن وحيـد مـع مضيفتك .

وفكّر قـائلاً : أنـا ضجرٌ من الاحتضـار كمثل ضجري من أيّ شيء آخر .

وقال في صوتٍ عال :

– «إنه شيء مضجرٌ حقاً» .

– «ما المضجر، يا عزيزي ؟»

– «أيما شيء يعمله الإنسان فترة طويلة أكثر مما ينبغي .»

ونظر إلى وجههـا ، الفـاصـل مـا بينــه وبين النـار . كانت منحرفـة في كرسيهـا إلى الـوراء ، وكان ضـوء النـار يتـألـق على أسارير محيـاهـا العـذبـة ، وكان في ميسوره أن يرى ان النعـاس يداعب عينيهـا ، وسمع الضجـة التي أحـدثهـا الضبع خلف نطـاق النار مباشرةً .

وقال :

– «كنت أكتب . ولكني تعبتً .»

– «أتظن انك قادر على النوم ؟»

– «من غير شك . لماذا لا تأوين إلى الفراش ؟»

– «أحب أن أجلس هنا معك .»

وسألها :

– «هل تحسين بأيما شيء غريب ؟»

– «لا . ولكني ناعسة بعض الشيء .»

فقال :

– «أما أنا فأحس بشيء غريب .»

لقد استشعر في تلك اللحظة أن الموت يقترب منه كرةً أخرى .

وقال لها :

– «أتدرين ؟ إن الشيء الوحيد الذي لم أفقده هو الفضول .»

– «انك لم تفقد قطّ شيئاً . أنت أتمّ الرجال الذين عرفتهم ، طولَ عمري ، وأكثرهم كمالاً .»

فقال :

– «يا الهي ! ما أقلّ ما تعرفه المرأة ! ما هذا ؟ أهو حَدْسُكِ ؟»

لأنه في تلك اللحظة بالذات أقبل الموت وأراح رأسه على قَدَم السرير . لقد كان في مقدوره أن يستروح أنفاسه

وقال لها :

– «لا تصدّقي أبداً حكاية المنجل والجمجمة هذه : فمن الجائز

أن تتمثّـل المنيّـة بشرطيين من ذوي الـدراجـات ، أو بطــائر من الطيور . وقد يكون لها خطم أفطس كخطم الضبع .»

لقد راح يخطو ، الآن ، فوق جسده ، ولكنْ لم يَبْقَ له يعـدّ شكلٌ ما . كان يحتلّ حيّزاً ليس غير .

- «قولي له أن يغرب .»

ولكنه لم يغرب . لقد تقدّم إلى الأمام بعض الشيء .

وقال له :

- «إن لكَ لَنَفَساً فظيعاً . أنت يا ابن العاهرة النتن !»

فلم يزده ذلك غير اقتراب منه . والآن لم يعـد في ميسوره أن يخاطبه بكلمة . حين بدا للموت انـه أعجز من أن ينطق بحرف ، أمعن في التقدم نحوه ، فحاول أن يصدّه عنـه من غير مـا كلام . ولكنـه واصـل سيره فـوق جسـده حتى لقـد رزح ثقلُـهُ كلـه على صـدره . وفيما كان الموت يجثم هنـاك ، ولم يعُـدْ في وسعـه هو أن يتحرك ، أو يتكلم ، سمع المرأة تقول :

- «بْوانـا نـائمٌ الآن . إرفعـا السرير في رفق كثير وانقلاه إلى الخيمة .»

ولم يكن في ميسوره أن ينطق ليطلب اليهـا أن تـدعـوه إلى الذهاب . وناء بكلكله فوقـه حتى لقـد تعـذر عليـه أن يتنفس . ولكن مـا إن رُفـع السرير حتى زال كل شيء . وفـارقــه الثقـل الجاثم فوق صدره .

وتنفس الصبح . تنفس من فترة غير قصيرة . وسمع هدير الطـائرة .

لقد بدت أول الأمر ضئيلة جداً ، ثم دارت دورة عريضة ، واندفع الغلمان إلى الخارج ، وأضرموا النار مستعملين الكيروسين ، وركموا العشب ، فإذا على كل طرف من الأرض المستوية ناران هائلتان أخذت ريح الصباح تدفع بهما نحو المعسكر . ودارت الطائرة ، خفيضةً هذه المرة ، دورتين إضافيتين . وهبطت محوّمة ، ثم استقامت وحطت على اليابسة في سلاسة . ثم إن كومبتون العجوز أقبل نحوه مرتدياً بنطلوناً رياضياً واسعاً ، وسترة صوفية خفيفة ، وقبعة سمراء من لبدٍ .

وقال كومبتون :

– «ما المسألة ، أيها الديك العجوز ؟»

فأجابه قائلاً :

– «لقد أصاب الفساد رِجلي . أتحب أن تتناول طعام الافطار ؟»

– «شكراً . لقد شربتُ ، منذ لحظة ، شيئاً من الشاي . إنها الـ Puss Moth ، كما تعرف . أنا لن أستطيع أن أقلّ الـ « مصاحب » . فليس عندي متسعٌ لأكثر من شخص واحد . إن شاحنتك في الطريق .»

وكانت هيلين قد قادت كومبتون إلى جانب ، وأنشأت تتحدّث اليه . حتى إذا عاد كومبتون كان أكثر ابتهاجاً من ذي قبل .

وقال :

– «سوف أنقلك في الحال . ثم أعود لكي أنقل الـ «مصاحب» . كل ما أخشاه هو أن أضطر إلى التوقف في آروشا لتزويد لطائرة بالبنزين . من الخير لنا أن نمضي الآن .»

– «والشاي ؟»

– «أنا لا أبالي به كما تعرف .»

وكان الغلمان قد رفعوا السرير الترحّلي وحملوه منعطفين حول الخيام الخضر ، هابطين عبر الصخور إلى السهل ، مجتازين النيران التي كانت تتقد ساطعةً – وقد نفِد العشب كله ، وأخذت الريح تُذكي النار – حتى الطائرةِ الصغيرة . ولم يكن من اليسير عليهم إدخاله إلى قلب الطائرة ، حتى إذا تمّ لهم ذلك تمدّد على المقعد الجلدي ، وسدّ رجله إلى جانب من المقعد حيث يجلس كومبتون . وأدار كومبتون المحرك ودخل . ولوّح لهيلين وللأولاد . وفيما كانت الغمغمة تتعاظم شيئاً فشيئاً لتصبح ذلك الهدير القديم المألوف انطلقت الطائرة – وكومبي يُحاذر مكامن الخنازير البرية – وجأرتْ ، وارتجّت فوق الرقعة الفاصلة ما بين النيران ، لترتفع مع الارتجاجة الأخيرة . وعندئذ بصُر بهم جميعاً واقفين ، ملوّحين بأيديهم ، وبصُر بالمعسكر في محاذاة الهضبة ، وكانت قد أخذت تستوي شيئاً بعد شيء ، وبالسهل المترامي إلى بعيد ، والغياض الحافلة بالشجر. والادغال المستوية هي الأخرى مع الأرض ، وآثار أقدام الطرائد تنساب في رفق نحو برك الماء الحافة . وكانِ ثمة مياه لم يُقَدّر له قطّ أن يراها . وكانت حُمُرُ

الزّرَد ، ولم يبق منها غير ظهور ضئيلة مستديرة ، وأسراب الـ « جنو » وكانت مجرّد نُقط كبيرة الرؤوس تبدو وكأنها تصعّد فيما هي تتحرّك عبر السهل – كانت هذه كلها قد تشتّتت الآن ، فيما الظلّ يتخذ سبيله نحوها . لقد غدت صغيرة ، وكانت تتحرك من غير تقريب ، وكان السهل يترامى على مدى البصر منك ، وقد حال لونُهُ أصفر رمادياً ، وأمامك ظهرُ سترة كومبي العجوز الصوفية الخفيفة وقبعة اللبد السمراء . ثم إنهما وجدا نفسيهما فوق أولى الهضاب ، وكانت الـ « جنو » تتسلقها مقتفيةً آثارها السابقة ، وبعد ذلك حلّقا فوق الجبال ذات الأجراف الشديدة الانحدار المغطاة بالغابات الخضر ، والمنحدرات الحافلة بالخيزران الصلب . ثم تبدّت لهما الغابة الملتفّة من جديد ، منحونةً قمماً وأغواراً ، حتى تجاوزاها ، وشرعت الهضاب تنحدر شيئاً بعد شيء ، ليتراءى لها بعدُ سهلٌ آخر – وكان حاراً ، وأرجوانياً أسمر ، أورث الطائرة كثيراً من الارتجاجات الناشئة عن حرارة الجوّ . وهنا التفت كومبي إلى الوراء ليرى إلى أيّ مدى كان يحتمل الرحلة . وكانت ما تزال أمامها جبال أخرى قاتمة .

وبدلاً من أن يمضيا إلى آروشا ، انعطفا شمالاً ، فكان طبيعياً أن يخيّل اليه أن لديهما مقداراً كافياً من البنزين . حتى إذا خفض بصره رأى سحابة قرنفلية منتخَلة تنتشر فوق الأرض ، وفي الهواء ، كمثل طلائع الثلج التي تتساقط بين يدي إعصار مفاجيء مقبلةً من لا مكان ، فأدرك أن أرجال الجراد تنطلق من ناحية

الجنوب . ثم انهما شرعا يحلقان متخذين سبيلهما في اتجـاه المشرق ، على مـا يبـدو . ثم أظلم الكـون ، وأحـاطت بهما العـاصفـة من أقطارهمـا ، وهطل المطر في غزارة خيّلت اليهما أنهما كانـا يطيران عبر شلاّل . وما هي إلا برهـة حتى خرجـا من تلـك الظلمـات ، وأدار كومبي رأسه وتبسّم وأومـأ إلى شيء مـا . وهنـاك أمـامهما ، كان كل ما استطاع أن يراه قمّةَ جبل كليمانجارو المربعة . عريضةً كالعالم برمّته ، هائلةً ، سامقةً ، نـاصعـةً إلى حـدّ لا يصـدّق ، في وجه الشمس . وعندئذ أدرك أنهما إنما كاناً يقصدان إلى هناك .

وفي تلك اللحظة بـالـذات كفـّ الضبع عن الأنين تحت جنح الليـل ، وشرع يرسـل صـوتـاً غريبـاً ، إنسـانيـاً ، يكاد يكـون دامعاً . وسمعته المرأة فتململت في ضيق . إنها لم تفق من سباتها . لقـد رأت في مـا يرى النـائم أنهـا في البيت بـ « الجـزيرة الطـويلـة » ، وكان ذلـك في الليلـة التي سبقت ظهـور ابنتهـا ، رسمياً ، على مسرح الحياة الاجتماعية العامة . وبطريقة مـا ، كان أبوها هناك ، ولقد كان فظاً جافيـاً إلى أبعـد الحـدود . ثم تعـالى الصوت الـذي أطلقـه الضبـع إلى درجـة أيقظتهـا من رقـادهـا . وطـوال فترة من الـزمن لم تـدر أين هي ، واستبـدّ بهـا خـوف مُزلزِل . وبعد ذلك تناولت مصباحاً كهربائياً يـدويـاً وسـدّدتـه نحو السرير الترحّلي الآخر الـذي حُمل إلى الخيمـة بعـد أن استسلم هاري للنوم ، فرأت جسده تحت الكِلّة ، ولكنـه كان قـد أخرج رجلـه بطريقـة مـا فهي تتـدلى من على جـانب السرير . كانت

الضمائد قد سقطت كلها ، ولم يكن في ميسورها أن تنظر اليها .

وصاحت :

– «مولو ! مولو ! مولو !»

ثم قالت :

– «هاري ! هاري !»

وبعد ذلك رفعت صوتها منادية :

– «هاري ! أرجوك ! اوه ، هاري !»

ولم تفز بجواب ، ولم يكن في ميسورها أن تسمعه يتنفس .

وخارج الخيمة أطلق الضبع الصوت الغريب نفسه الذي أيقظها من قبل . ولكنها لم تتمكن من سماعة لأن قلبها كان يخفق خفقاناً عنيفاً .

طبع بالمؤسسة الوطنية للفنون المطبعية

وحدة الرغاية، الجزائر

2007

Achevé d'Imprimer sur les Presses
ENAG, Réghaïa
- Algerie -

Bp. 75 Z.I. Réghaia Tél. : 021 84 80 10/84 86 11

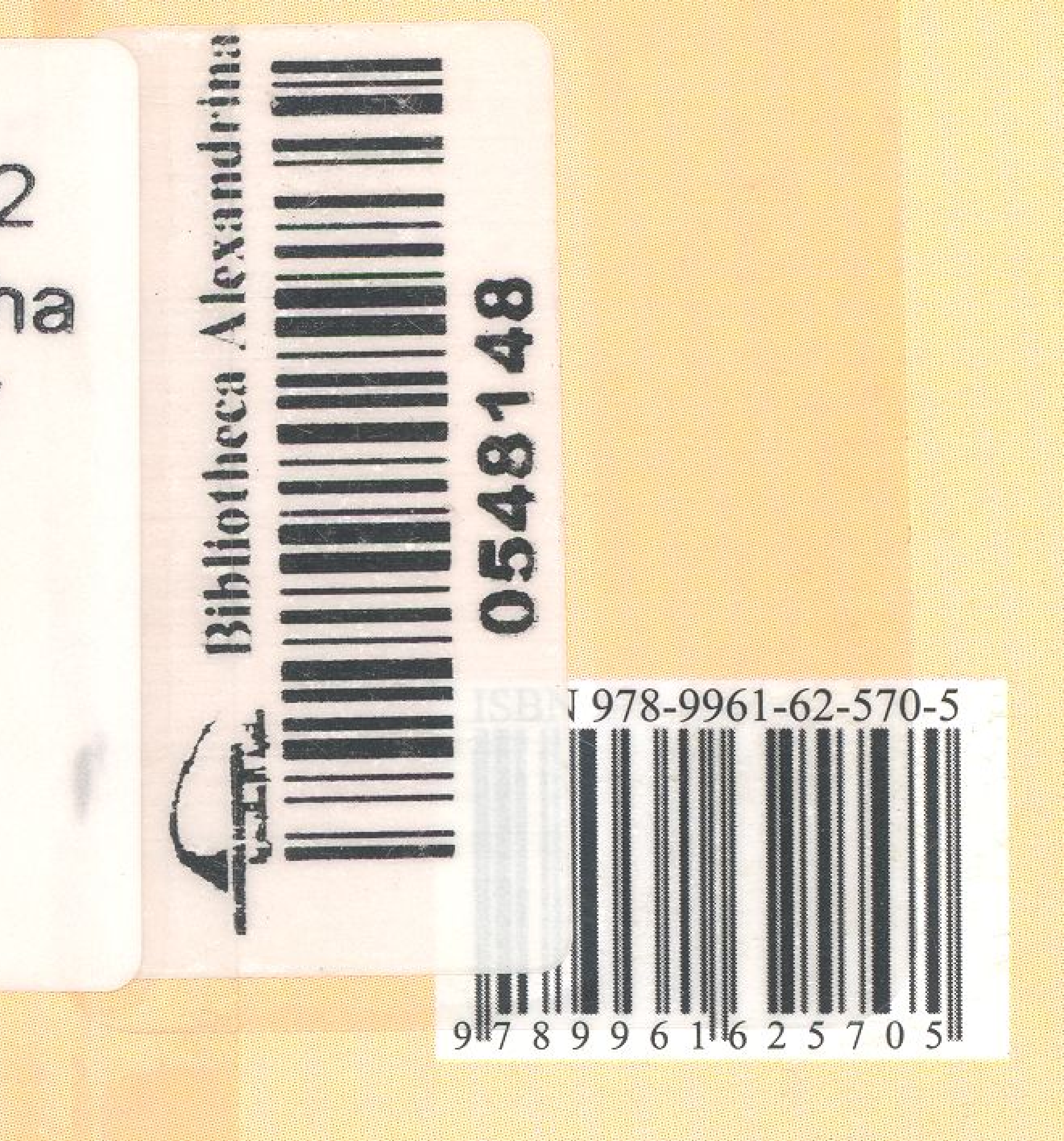


الشيخ والبحر

متبوع بـ

ثلوج كيلمنجارو

..أن تكون هذه القصة قصة مثالية فهذا أمر لا شك فيه، سواء من حيث المكانة التي تحتلها في مؤلفات هيمنقواي أم من حيث ما تركته من أصداء في الأدب العالمي. فلقد أثّر هذا الكتاب بالفعل في كثير من أجيال القراء وفيمن غدوا بعد ذلك كتابا ومؤلفين (بما في ذلك العالم الثالث) وليسمح لنا أن نسجّل بهذا الصّدد أنّ آخر قصص هيمنقواي الكبيرة تجري أحداثها رمزيا في أحد موانئ الكرايب الصغيرة. بعيدا كل البعد عن «الحواجز القديمة» التي أقامها الغرب الآخذ في الإنحطاط...



ISBN 978-9961-62-570-5
9 789961 625705



Designer : Med ZOUAOUI